الفصل الثالث

النشاط الاقتصادى

أولا ـ دور الحروب الصليبية ٠

ثانيا ـ النشاط التجارى للمدن الايطالية بالشام ٠

ثالثا ـ طرق التجارة البرية والبحرية المؤدية الى الشام ٠

رابعا ـ أهم المراكز التجارية ٠

خامسا ـ أهم السلع التى كانت محور النشاط التجارى ٠

سادسا ـ النظم والمعاملات التجارية ٠

النشـــــاط الاقتصـــــادى

يتصور الكثيرون أن الحركة الصليبية ليست الا سلسلة حروب متصلة الحلقات بين المسلمين والصليبيين ، دون أن يعرفوا جميعا لغة للتفاهم عـدا لغة السيوف والحراب • والحقيقة أن تلك الصورة لاتعبر الا عن وجه واحد فقط من أوجه تلك الحركة ؛ اذ الثابت أن هذه الحركة مهما تعددت أغراضها وتباينت دوافعها ، كانت قبل كل شىء مجالا واسعا التقى فيه الشـــرق الاسلامى بالغرب المسيحى ، وان هذا اللقاء لم يكن حربيا فحسب ، بل كان أيضا لقاء حضاريا على أوسع نطاق (١) • ومع اعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية ، فاننا نميل الى تأكيد اهمية العامل الاقتصادى بالذات فى تلك الحركة • فلم يكن الغزو الصليبى لبلاد الشام ، نابعا من الحماســة الدينية التى تستهدف انتزاع الاراضى المقدسة من ايدى المسلمين ، وانما كان جريا وراء تحقيق مكاسب اقتصادية فى الشرق العربى •

ومهما كان من امر تلك الحروب التى انتهت بسقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين عام ١٠٩٩ م ، وتأسيس أربع امارات صليبية بالشام ، وهى بيت المقدس وانطاكية وطرابلس والرها ، فان الذى يعنينا ـ بوجه خاص ـ هو اثر تلك الحروب فى النشاط التجارى ، منذ ان وطئت أقدام الصليبيين بلاد الشام ، الى أن تم طردهم أواخر القرن الثالث عشر •

أولا ـ دور الحروب الصليبية فى تجارة الشام :

فى حقيقة الامر ، لم يكن للامارة الصليبية فى بيت المقدس عند قيامها سوى منفذ واحد على البحر ، هو ميناء يافا • ولما كانت هذه الامارة محاطة باعداء من الداخل ، فقد صار لزاما على جود فرى بوايون (ت ١١٠٠ م) أن يقوى الصلة بين بيت المقدس والعالم الخارجى وخاصة الغرب الاوروبى عن طريق البحر ، ولذلك أخذ يفكر فى الاستيلاء على أرسوف شمالى يافا ، وكان ان ضيق الخناق عليها بمساعدة اسطول بيزا ، مما دعا الاهالى فى أواخـر

---

(١) سعيد عاشور : أضواء على الحروب الصيبية ، ص ٨١ •

مارس عام ١١٠٠ م باعلان الخضوع لجودفرى ، ودفع جزية سنوية • وفى ذلك الوقت دأب الصليبيون على تحصين يافا ، حتى اضحت مركزا لنشاط تجارى ، فقصدتها السفن التجارية لاحضار الحجاج من ناحية ، وامداد بيت المقدس بما احتاجت اليه من امدادات من ناحية أخرى (١) • واتخذ الصليبيون من يافا مركزا لشن اغارات مستمرة على ممتلكات الفاطميين الساحلية ، ونظرا لعجز الدولة الفاطمية عن حماية ممتلكاتها ،فقد دب اليأس فى قلوب أهـــل المدن الاسلامية ، الامر الذى أدى بحكام عسقلان وقيسارية وعكا باعـــلان تبعيتهم لدولة الفرنجة • وأسرع الكثير من مشايخ العرب فى الجهات الداخلية الى عقد اتفاقيات ودية مع حكومة بيت المقدس ، ليضمنوا سلامة قوافلهم ومتاجرهم (٢) • اذ درجوا من قبل على أن يرسلوا الفائض من محاصيلهم الى المدن الساحلية ، ولكن الامارات الصليبية أضحت تعترض طريقهم ، لذلك طلبوا من جودفرى أن يسمح لهم بمرور قوافلهم عبر أراضيه ، فسمح لهم ، بيد أنه فى نفس الوقت بذل قصارى جهده كيما يحول أكبر قدر من التجارة الى ميناء يافا (٣) • وفى الوقت ذاته حرض الصليبيون القـوى الايطالية ـ أصحاب التفوق البحرى فى البحر المتوسط ـ على أن يقطعوا طريق التجارة بين موانىء فلسطين الاسلامية ومصر ، وترتب على ذلك اضعاف تلك الموانى ثم سقوطها فى النهاية فى أيدى الصليبيين • وهكذا تركز النشاط التجارى فى فلسطين فى أيدى الصليبيين (٤) •

وبعد وفاة جودفرى عام ١١٠٠ م ، ارتأى بلدوين الأول (١١٠٠ ـ ١١١٨م) ضرورة حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقى ، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة ، وهى المنطقة المعروفة باسم وادى عربة (٥) • ومن الواضح أن تحقيق ذلك المشروع يؤدى الى قطع الطريق البرى وتهديد القوافل التجارية بين مصر والشام والعراق

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٦٣ ـ ص ٢٦٤

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٣ ـ ص ٢٦٤

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٣٧ •

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ـ ص ٢٦٥ •

(٥) سعيد عاشور : شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ٣٥ •

والحجاز • وبالفعل تمت السيطرة لبلدوين على وادى عربة ، ثم شيد عام ١١١٥م حصن الشوبك ليمكن مهاجمة القوافل التجارية المتجهة من مصر الى فلسطين ، وليحقق نفوذا للفرنجة على وادى عربة (١) • ثم استولى فى العام التالى سنة ١١١٦ م على ميناء أيلة (٢) على ساحل خليج العقبة ، وبنى فى أيلة قلعة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام ، كما شيد قلعة اخرى فى جزيرة فرعون ـ عرفها الفرنج باسم Le Graye ـ الواقعة قبالة أيلة فى خليج العقبة ، وبذلك تمكن الصليبيون من الاشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة (٣) •

وحتى يتمكن بلدوين الأول من توطيد نفوذه على الساحل الفلسطينى ، قام بفرض الحصار على عكا ، عقب عيد القيامة عام ١١٠٣ م ، وعكا من الموانىء الساحلية الهامة (٤) • وشهدت السنة التالية ١١٠٤ م سقوط عكا بعد أن ضاق الحصار البرى والبحرى عليها ، وساهمت الاساطيل الجنوية فى الاستيلاء عليها ، وللمرة الاولى توفرت أسباب الامن للقادمين الى الشام من ناحية البحر، وتوقفت هجمات المسلمين (٥) •

وفى عام ١١٢٠ م خطا بلدوين الثانى (١١١٨ ـ ١١٣٠ م) خطوة عظيمة بالنسبة لتجارة مملكة بيت المقدس ، محتذيا حذو بلدوين الاول فى السياسة الاقتصادية ، فقد أصدر بلدوين فى ذلك العام قانونا منح فيه جميع اللاتين ـ سواء المقيمين أو الحجاج أو المتنقلين ـ اعفاءات تجارية ضخمة ، منها

---

(١) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٥ ـ ص ٣٦ •

(٢) يقع ميناء أيلة فى الركن الشمالى الشرقى لخليج العقبة ، وكان لها شأن عظيم فى التاريخ القديم وفى العصور الوسطى ، لان موقعها فى أقصى خليج العقبة جعلها ملتقى تجارة القوافل التى كانت تتجه من الموانىء الفلسطينية الى جنوب بلاد العرب ، وكان ميناء أيلة تابعا للشام ويعتبر ميناء فلسطين • (دائرة المعارف الاسلامية مادة أيلة) •

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٣٢٧ ـ ص ٣٢٨ •

(٤) William of Tyre : Hist. of Deeds Done Beyond the Sea. Ibid : pp. 570—541.

(٥) Ibid. pp. 455—456

الاعفاء التام من الرسوم الجمركية لكل بضاعة ترد الى المملكة أو تصدر منها (١) ٠ وفى نفس الوقت أجاز بلدوين الثانى للمسيحيين الشرقيين : السريان ، والروم، والأرمن ، بالاضافة الى العرب ، أجاز لهم حرية الدخول لبيت المقدس لتصريف محاصيلهم دون دفع أية رسوم ٠ والواقع أن الغاء الرسوم الجمركية والمحلية التى قيدت النشاط التجارى وأعاقته فى العاصمة ، يدل على ذكاء ملك بيت المقدس ، ليس فى الجانب الاقتصادى فحسب ، ولكن أيضا فى الجانب السياسى، وقد كان لهذا الاجراء نتائج بعيدة المدى ، اذ أدى الى المساهمة فى الازدهار الاقتصادى لمملكة بيت المقدس ، وحافظ على الدور الهام الذى لعبته المملكة فى النشاط التجارى ، خاصة فى القرن الثالث عشر (٢) ٠

وقد استأنف ملوك بيت المقدس تلك السياسة الناجحة ، فوضع فولك (١١٣٠ ـ ١١٤٣ م) فى الاعتبار ، ضرورة تأمين مواقع الصليبيين شرقى البحر الميت ، من أجل احكام السيطرة على طرق القوافل بين مصر والشام وشبه الجزيرة العربية ، لذلك وافق على تشييد حصن شرقى البحر الميت عام ١١٤٢ م على تل فى صحراء البتراء Petra Deserti اشتهر باسم حصن الكرك ، وكان لموقعه من الاهمية ما هيأ له السيطرة على الطرق الوحيدة السالكة ، الممتدة من مصر وغربى بلاد العرب الى الشام ، فضلا عن أنه لم يكن شديد البعد عن مخاضات نهر الاردن الأدنى (٣) ٠ وبهذه الوسيلة اشتدت قبضة الصليبيين على طريق القوافل التجارية ، خاصة بعد أن اضحى أرناط سيدا لحصن الكرك ٠ فقد دأب على مهاجمة القوافل المتجهة من دمشق الى القاهرة، وطريق الحجاج الى مكة المكرمة ٠ وبذل صلاح الدين الايوبى محاولات عدة من أجل الاستيلاء على حصنى الشوبك والكرك ، منها محاولة عام ١١٧٣ م التى فرض فيها الحصار على الكرك ، ولكنه سرعان ما رفع الحصار ، وقفل راجعا الى مصر (٤) ٠

---

(١) Grousset : Hist. des Croisades. T. I. p. 540

(٢) Ibid : pp. 540-541.

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٧٠ ـ ص ٣٧١ ٠

(٤) Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury Ier p. 305

أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٥٥ ـ ص ٥٦ ٠

وعلى الرغم من المعاهدات التى أبرمت بين صلاح الدين والصليبيين ، للسماح بمرور القوافل التجارية الآتية من مصر الى الشام ، الا أن ارناط كثيرا ما نقض تلك الاتفاقيات بقطع الطريق على القوافل التجارية ؛ ولم يبال بالسمعة السيئة التى لصقت به كناقض للمعاهدات ، فمن دواعى سـرورة الاستيلاء على قوافل التجار والحجاج فى طريقهما من الشام الى مصر ومكة (١)· ففى عام ٥٨٢ هـ انتهز فرصة مرور قافلة ضخمة متجهة من مصر الى الشام ، « وفيها خلق عظيم ، ومال كثير فاستولى على الجميع قتلا واسرا ونهبا » (٢)·

وفى تلك الاثناء ، كان أرناط قد خرج بمشروع صليبى فى البحر الاحمر الغرض منه تدمير مكة والمدينة من ناحية ، والسيطرة على تجارة ذلك البحر من ناحية أخرى (٣) · وبدأ ارناط تنفيذ مشروعة بالاستيلاء على أيلة عـام ١١٨٢ م ، ذلك المركز الهام الذى استرده صلاح الدين عام ١١٧٠ م ، والذى كان بوسعه تهديد الشوبك والأراضى الصليبية فى وادى عربة ، ولما كان من المتعذر على الصليبيين الاحتفاظ بأيلة دون السيطرة على جزيرة فرعون المواجهة لها فى خليج العقبة ، فقد شرع ارناط فى بناء عدة سفن حملت أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال ، حتى خليج العقبة حيث فككت (٤) ·

ولم يكد يتم تركيب السفن الصليبية ، حتى استولى بعضها على جزيرة القلعة (جزيرة فرعون) ، واخذ البعض الآخر يقوم بالاغارة على الموانىء المصرية الصغيرة على البحر الاحمر ؛ ومن الموانىء التى أغار عليها أرناط ميناء عيذاب الواجه لميناء جدة (٥) · وهكذا تنبه الصليبيين الى المكانـة التى احتلتها تجارة البحر الاحمر ، فحاولوا تحطيمها (٦) ، لكن صلاح الدين الأيوبى

---

(١) Lane — Poole : Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem.

(٢) ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٧ ص ٥٠ ـ ص ٥١ · سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٩ ·

(٣) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ٦٥ ·

(٤) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٦٦ ـ ص ١٦٧ ·

(٥) ابن أيبك الدوادارى : المرجع السابق ، جـ ٧ ، ص ٧١ ·

(٦) محمود الحويرى : أسوان فى العصور الوسطى ، ص ١٠٥ ·

أسرع باصدار تعليمات عاجلة الى أخيه العادل ، فاعد الاخير اسطولا قويا اسند قيادته لحسام الدين لؤلؤ ، الذى استطاع احباط تلك المحـــاولة الصليبية (١) • وعلى الرغم من فشل محاولة ارناط ، فقد عاد الى قلعته الكرك ، واقام فيها ، « كالذئب المجروح يلعق جراحه » ، ولم تتغير طبيعته، فعاد الى الهجوم على القوافل التجارية التى تمر بجوار قلعته (٢) •

على أن ما قام به ارناط الصليبى لايؤخذ حكمـــا عاما على جميـع الصليبيين فى القرن الثانى عشر • فالواقع أن المدن ببلاد الشام قد ازدهرت، وتمتعت بنشاط كبير فى المجال الاقتصادى (٣) • ويشهد على ذلك الرحالة ابن جبير (٤) الذى قال : ومن أعجب ما يحدث به فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين • كذلك يقول ابن جبير : « ومن أعجب ما يحدث أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى (فرنجة) ، وربما يلتقى الجمعان ، ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم • واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك • وتجار النصارى أيضا لايمنع أحد منهم ولا يعترض • وللنصارى على المسلمين جزية يؤدونها فى بلادهم • وتجار النصارى أيضا يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الاحوال • واهل الحرب مشتغلون بحروبهم ، والناس فى عافية ،والدنيا ان غلب (٥) » • وقصة التاجرين الثريين من دمشق ، وهما نصر بن قوام، وأبى الدر ياقوت العطاف خير دليل على ذلك أيضا ، فتجارتهما كلها بهذا الساحل الافرنجى ، ولا ذكر فيه لسواهما •• فالقوافل صـــادرة ووارده ببضائعهما ، ومكانهما فى الغنى كبير ، وقدرهما عند امراء المســـلمين

---

(١) ابن بهادر : فتوح النصر ، ج ١ ، ورقة ٢١ ــ ورقة ٢٢ ،
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٦٩ •

(٢) Harold Lamb : The Crusades. p. 61

(٣) Ziadeh : Urban Life in Syria. p. 61

(٤) الرحلة ، ص ٢٧١ •

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٦٠ ــ ص ٢٦١ •

والافرنجيين خطير (١) » • والواقع أن النشاط التجارى سار جنبا الى جنب مع التوسع الحربى • وكانت التجارة تمر خلال الصفوف العسكرية بمقتضى اتفاق متبادل ، وحرص الجانبان الاسلامى والصليبى على ضمانة الأمن للتجارة المتبادلة بينهما • ففى صلح الرملة الذى عقد بين صلاح الدين الايوبى وريتشارد قلب الاسد فى ٢ سبتمبر عام ١١٩٢ م ، أضحى للمسلمين والصليبيين الحق فى أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الآخر « ورحل جماعة من المسلمين الى يافا للتجارة (٢) » •

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبى فى مارس ١١٩٣ م (صفر ٥٨٩ هـ) شهدت بلاد الشام فترة هدوء نسبى ، ولم ينزع المسلمون للاعتداء ، لما جنوه من أرباح نتيجة ازدياد النشاط التجارى • والمتتبع لاتفاقيات الهدنة (٣) التى عقدت بين أبناء صلاح الدين والصليبيين ، يستشف منها حرص الفريقين على الرخاء المادى وترف الحياة • والثابت أن الصليبيين فى بلاد الشام فى القرن الثالث عشر ، لم يكن لهم الرغبة فى قدوم حملات صليبية جديدة ، فقد غلبت عليهم الصفة الشرقية ، وانصاعوا الى حياة الخمول والبذخ ، وأبدوا الرغبة فى التعايش السلمى مع المسلمين ، مما كان له أبعد الأثر فى ازدهار التجارة • وبمعنى آخر يمكن القول أن « الروح الصليبية » فى منتصف القرن الثالث عشر ، حلت محلها « الروح أو النشاط الاقتصادى (٤) » •

ومن الجدير بالذكر ، أنه على الرغم من سيطرة الفرنجة على بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لم يكن لهم فى التجارة الداخلية الا نصيب ضئيل • اذ ان المتاجر جلبها من الداخل الى الساحل تجار مسلمون

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨١ •

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ١١٠ ،
Thompson : Econ. and Soc. History. Vol. I p. 380.

(٣) ابن واصل مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب ، جـ ٢ صفحات ٧٨ ، ١٤٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، واماكن أخرى متفرقة •

(٤) Richard : Le Royaume Latin. p. 274

أو مسيحيون وطنيون ، وفى شمال الشام نقلها الى الساحل من انطاكية أيضا تجار نورمان وارمن (١) ٠

واستطاعت دولة المماليك أن تشعر العالم الاسلامى بأهميتها فى الشرق الادنى ، فقد حرصت على رفع راية الجهاد ضد البقايا الصليبية بالشـــام من ناحية ، والمغول من ناحية أخرى ٠ وجاءت بداية هدم الكيان الصليبى بالشام على يد السلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧ م) ، الذى رجحت كفته على كفة الصليبيين بالشام ، مما أدى بفرنجة الساحل فى يافا وبيروت عام ١٢٦٠ م (٦٥٩ هـ) الى طلب تجديد الهدنة التى كانت مقررة فى الأيام الناصرية أى فى صلح الرملة عام ١١٩٢ م ، فوافقهم على ذلك ، فأمنت الطرق على التجار ، وبالاضافة الى ذلك ، كتب الى أمرائه بحفظ البلاد حتى حدود العراق (٢) ٠ كما حرصت مملكة بيت المقدس الصليبية فى عكا ومقدمو منظمتى الاسبتارية والداوية ، على عقد هدنة مع السلطان المنصور سيف الدين قلاوون عام ١٢٨٣ م (٦٨٢ هـ) ، لمدة عشر سنين وعشر أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، لحماية جميـــع التجار فى عكا وصـــيدا وعثليت (٣) ٠ والى المماليك يرجع الفضل فى أن تجارة الشام الداخلية ، أضحت كلها فى أيدى المسلمين ، لا سيما بعد الاستيلاء على عكا عام ١٢٩١ م (٦٨٩ هـ) ، آخـر معاقل الصليبية بالشام ٠ وقد ذكر المؤرخون أن السبب المباشر لفتـــح عكا على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، هو ثورة جماعة من الفرنجة بعكا ، فقتلوا جماعة من تجار المسلمين ، كانوا قد قدموا للتجارة ، وخوفا من غضبة السلطان المملوكى ، زعم سكان عكا من الفرنجة « أن ذلك انما فعلـه الفرنج الغرب (الوافدين الجدد) ، فكان ذلك من أكبر الأسباب التى أوجبت فتح عكا (٤) ٠

---

(١) Heyd. Histoire de Commerce., Vol. I pp. 393—400

(٢) ابن بهادر : فتوح النصر ، ج ١ ورقة ١٠٢ ٠

(٣) ابن الفـرات : تاريخه ، المجلد السابع ، ص ٢٦٢ ــ ٢٦٤ ٠
المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٩٨٥ ــ ص ٩٩٣ ٠

(٤) ابن الفـرات : تاريخه ، المجلد الثامن ، ص ٩٣ ٠
ابو المحاسن : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، حوادث عام ٦٩٠ هـ ٠

ثانيا ـ النشاط التجارى للمدن الايطالية بالشام :

عاش الغرب الاوروبى حتى القرن الحادى عشر على النشاط الزراعى ،ثم كان أن ظهرت فى ذلك القرن حالة من السلام والاستقرار ، مكنت التجار من مباشرة نشاطهم ، وبالتالى ساعدت على ازدهار المدن (١) • وقد ظل النشاط التجارى قائما بين المدن الايطالية من ناحية ، وأراضى الدولة البيزنطية من ناحية أخرى ؛ ويمكن القول أن ذلك النشاط انحط الى أسفل درجاته فى القرن العاشر الميلادى ، وظل على ذلك حتى بدأت الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر ، لتعمل على تحطيم نظام الضياع ، وتشجيع التجارة بوجه خاص ، فظهرت امالفى وجنوه وبيزا ومرسيليا وناربون وبرشلونه ، لتنافس البندقية فى ذلك النشاط (٢) • والثابت أن تجار ايطاليا ، كانوا فى نهاية القرن العاشر ، قد استفادوا من جماعة الامبراطورية البيزنطية لهم ، فأسسوا علاقات تجارية مع مصر والشام (٣) • وفى اواخر القرن الحادى عشر ، تحررت تجارة الغرب الأوروبى من النظام الاقطاعى فى أوروبا ، بارتباطها بظروف أفضل ، فالدعوة الى الحروب الصليبية ، التى قامت بها الكنيسة ، انتزعت الغرب من عزلته القديمة ، ووجدت التجارة فرصتها فى مواكبـــة الحملات الصليبية من ناحية ، ومرافقة الحجـــاج الى الارض المقدســـة من ناحية أخـــرى (٤) •

وقبل تحرك الحملة الصليبية الاولى الى هدفها ببلاد الشام ، ظلت المدن الايطالية شديدة الحذر ، وبالغة الميل الى التمهل فى بذل ما وعدت به من مساعدة ، لعدم ثقتها فى نجاح الحملة الصليبية الاولى • ولكن المـــدن الايطالية لم تغير رأيها الا بعد أن أدركت أن الحرب الصليبية الاولى ، تبشر بالنجاح واحراز النصر ، لاسيما بعد الاستيلاء على مدينتى نيقية وانطاكية• فبادرت المدن التجارية الايطالية الثلاث : بيزا والبندقية وجنوه بارســـال أساطيلها الى الشرق الأدنى لمساعدة الصليبيين ، مقابل امتيازات فى كل

---

(١) Thompson : op. cit. Vol. I p. 380

(٢) ســـعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٩٦ •

(٣) Thompson : op. cit. Vol. I p. 380

(٤) Boissonade : Life and Work in Medieval Europe. p. 160

مدينة أسهمت تلك المدن فى الاستيلاء عليها • ورحب الصليبيون بتدخل المدن الايطالية لافتقارهم الى القوة البحرية ، التى لولاها ما استطاعوا اخضاع المدن الساحلية بالشام من جهة ، أو الاتصال بالغرب الاوروبى من جهة أخرى (١)•

ففى عام ١٠٩٧ م أبحر اسطول جنوى الى انطاكية ، حاملا معه المؤن والامدادات العسكرية ، وبعد ذلك بسنتين ارسلت بيزا سفنا بأوامر من البابا من أجل المساعدة فى انتزاع بيت المقدس من المسلمين • ومنذ ذلك الوقت فتح البحر المتوسط كل منافذه أمام التجارة الغربية ، وبالأحرى أعيد فتحه القوى البحرية الغربية مثلما كان الحال أيام الرومان (٢) • وعلى الرغم من ان النتائج التى استهدفت الحركة الصليبية تحقيقها ، كانت سريعة الزوال، اذ استطاع المسلمون استعادة اراضيهم ، وطرد البقايا الصليبية ، فمن الملاحظ ان البحر المتوسط ظل فى أيدى دول الغرب الأوروبى ، فهى التى أضحت مسيطرة عليه ، وعلى نشاطه التجارى دون منازع (٣) •

وكما رأينا من قبل ، أن استيلاء الفرنجة على بيت المقدس عطل طرق التجارة البرية من بلاد الشام الى مصر وغرب شبه الجزيرة العربية وبالعكس، فقد رأى الصليبيون لزاما عليهم السيطرة على المنافذ البحرية للساحل الشامى لا سيما فلسطين ، ولم يكن فى استطاعتهم ذلك الا بمساندة الاساطيل الايطالية • لهذا نلاحظ أنه بمجرد ان رسا اسطول جنوى ضخم بميناء يافا فى يونيه عام ١١٠٠ م ، أسرع جودفرى باستقالة ، ودارت المفاوضات بينه وبين البنادقة ، وانتهت الى موافقة البنادقة على بذل المساعدة للصليبيين، وفى نظير ذلك يكون لهم الحق فى حرية التجارة وانشاء كنيسة وسوق ، فضلا عن ثلث الغنائم فى كل بلد يساهمون فى الاستيلاء عليه (٤) • وبعد وفاة جودفرى اتفق بلدوين الاول عام ١١٠١ م مع الجنويين الذين يمتلكون اسطولا اكبر من اسطول منافسيهم البيازنة ، اتفق معهم على أن يخدموه مدة فصل

---

(١) Heyd : op. cit. Vol. I pp. 131—135

(٢) Pirenne : Med. Cities. p. 92

(٣) Ibid. pp. 92—93

(٤) Recueil des Historiens des Croisades. occ. Vol. I. pp. 272—273

من السنة ، ويتقاضوا مقابل ذلك ثلث كل مايتم الاستيلاء عليه من غنائم،وان يكون لهم شارع فى حى السوق بكل مدينة يتم فتحها ، ولم يكد الاتفاق يتم، حتى تحركوا لمهاجمة ارسوف ، فهاجمها بلدوين من جهة البر ، والجنويون من جهة البحر ، ولم تلبث أن انهارت أرسوف ، ووضع بلدوين يده عليها (١)٠

وفى مايو سنة ١١٠٣ م (٤٩٧ هـ) فرض بلدوين الحصار على ميناء عكا ، بمساعدة اسطول جنوى ضخم ، اتفق مع قادته على ان يعطيهم ثلث الغنيمة وامتيازات تجارية ، وتمكن بعد عشرين يوما من الحصار الاستيلاء على عكا (٢) ٠ وعلى الرغم من أن ميناء عكا يبعد عن العاصمة بحوالى مائة ميل ، الا أنه كان ميناء صالحا لرسو السفن فى كل الفصول ، وأضحى الميناء الرئيسى للمملكة ، بدلا من يافا ، وجرى فيه شحن ما يرد من دمشق من السلع الى الغرب ، ولم تتوقف الحركة التجارية فى عكا بعد سقوطها فى أيدى الفرنج (٣)٠ واستطاع البيازنة الحصول على امتيازات تجارية نظير مساعدة تانكرد الوصى على انطاكية ، فى انتزاع اللاذقية من البيزنطيين ، وتشمل هذه الامتيازات أن يجعل لهم تانكرد حيا فى كل من مدينتى اللاذقية وانطاكية، فضلا عن اطلاق حرية التجارة ، والاعفاء من المكوس فى كل البلاد التابعة له، وقد أوفى تانكرد بعهده بعد سقوط اللاذقية عام ١١٠٨ م (٤) ٠ ولم يتمكن الفرنجة الاستيلاء على طرابلس فى شمال الشام عام ١١٠٩ م (٥٠٢ هـ)، الا بمساندة الاسطول الجنوى ، وكافأ برتراند صاحب طرابلس ، بأن صار للجنوية حى فى طرابلس وحصن الكند سطبل Castrum Stabulari ، الذى يقع على بعد عشرة اميال الى الجنوب من طرابلس ، بين أنفه والبترون ؛ وفضلا عن ذلك منحهم ثلثى مدينة جبيل ، ومن قبل اعطاهم ريموند الصنجيل ثلث تلك المدينة عام ١١٠٤ م ، عندما ساهموا فى اسقاطها ، وبذلك صارت

---

(١) Recueil des Historiens des Croisades. occ. Vol. IV pp. 452—453

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٣ ـ ص ١٤٤ ٠

Iorga : Brève Histoire des Croisades. pp. 129—130

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٤ ٠

(٤) Heyd : op. cit. Vol. I pp. 145—146

جبيل مستعمرة جنوية (١) • وتابع الصليبيون استيلائهم على المدن الساحلية ذات الطابع التجارى الهام • فبادر بلدوين بفرض الحصار على مدينة صيدا فى أكتوبر عام ١١١٠ م ، وبفضل مساعدة الاسطولين البندقى والجنوى ، جرى الاستيلاء على المدينة فى ديسمبر عام ١١١٠ م ، وحصل البنادقة مقابل ما أدوه من خدمات على امتيازات ، بأن جعل لهم كنيسة وبعض الممتلكات فى صـــيدا (٢) •

ولم يتبق للصليبيين من المدن الساحلية سوى عسقلان وصور ، فالتمس بلدوين المساعدة من البنادقة ، وفى آخر مايو عام ١١٢٣ م ، وصل أسطول للبنادقة يتألف من مائة سفينة حربية ، وبعد أن دارت المفاوضـــات قرر الصليبيون أن ينازلوا صور أولا ، لأن ميناءها يعتبر خير الموانىء الواقعة على امتداد الساحل ، بالاضافة الى أنه يفوق عسقلان فى الاهمية التجارية كما أنه كان الميناء الذى ترد اليه حاصلات دمشق • على أن شروط البنادقـــة لتقديم مساعدتهم استهدفت الحصول على امتيازات تجارية مبالغ فيها هذه المرة ، فأصروا على أن يكون لهم فى كل مدينة بالمملكة شارع وكنيســة وحمامات وفرن ، ويصبح لهم الحرية فى استخدام موازينهم ومكاييلهم فى أعمالهم التجارية لابين انفسهم فحسب ، بل مع سائر الذين يتعاملون معهم، وينبغى أيضا اعفاؤهم من كل الضرائب فى سائر انحاء المملكة ، وتقرر أيضا أن يصير لهم ثلث كل من مدينتى صور وعسقلان متى ساهموا فى الاستيلاء عليها • وفى نظير ذلك وافق البنادقة على دفع ثلث ما يتقاضونه من الحجاج من الأجور للخزانة الملكية (٣) • وفى يوليو عام ١١٢٤ م ، سقطت مدينة صور ، بعد أن ضيق عليها الحصار من البر والبحر ، وأقلع البنادقة راجعين بعد أن حصلوا على ما ارادوا من امتيازات • وبسقوط صور تم وضع الأساس المتين لتجارة البندقية فى الشرق •

---

(١) ابن القلانسى : المرجع السابق ، ص ١٦٣ ـ ص ١٦٤ •
Grousset : op. cit. Vol. I pp. 359–360.

(٢) Heyd : op. cit. Vol. I p. 148

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٢ ص ٢٦٥ ـ ص ٢٦٨ •
سـعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥١٨ ـ ص ٥٢٢ •
C. Med. H. Vol. I pp. 411–413

وهكذا ربطت مملكة المقدس نفسها بالبحر ربطا متينا ، وباتت تتصل بالغرب الاوربى عن طريق البحر ، وبواسطته استطاعت الحصول على مـــا تحتاج اليه من امدادات بشرية ومادية • وقد قامت المدن الايطالية الثلاث البندقية وجنوه وبيزا ، بدور فعال ، فى ربط الشـــام الصليبية بالغـرب الاوروبى ، واذاكانت تلك المدن قد بذلت المساعدة للصليبيين ، فانها لم تفعل ذلك بسبب وازع دينى ، وانما حصلت نظير ذلك ـ كما رأينا ـ على امتيازات تجارية هامة •

وفى الوقت الذى استطاع فرنجة الشرق السيطرة على الجزء الشـرقى من البحر المتوسط ، كان التجار الايطاليون هم اصحاب السيادة فى نقـــل المحاصيل الشرقية بين موانىء الشرق وموانىء الغرب (١)• والثابت أن الحركة الصليبية ـ بعد نجاحها ـ استطاعت أن تحول البحر المتوسط الى بحيرة لاتينية،وعلى هذا اطلقت الجمهوريات الايطالية ومدن بروفنس وقطالونيا العنان للمنافسات فيما بينهما (٢) • ومن المحتمل أن مرسيليا كانت المدينة الوحيدة من بين مدن جنوب فرنسا ، التى استطاعت أن تنافس المدن الايطالية ، وأن تحول جزءا من تجارة الصليبيين المبكرة الى مينائها (٣) • ففضلا عن الدور الذى لعبته مرسيليا خلال الحروب الصليبية ، هناك العديد من الادلة التى تثبت نجاح مرسيليا فى الشام • اذ فى عام ١١١٧ م حصل تجار مرسيليا على امتياز بان يكون لهم «حى» فى بيت المقدس لايشاركهم فيه غيرهم ؛ وفى عام ١١٥٢ م منح الملك بلدوين الثالث امتيازا لاهالى مرسيليا ، باقامة مصانع لهم فى كل موانىء فلسطين وتأسيس حى لهم فى صور ؛ وبعد أن استرد المسلمون مدينة بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبى ، جدد جـــاى لوزيجنان حقوق الامتيازات لمرسيليا ، بأن أعفى سفنها الكبيرة والصغيرة من كل رسوم الموانىء ، وصار لهم محكمتهم الخاصة بهم فى عكا (٤) •

---

(١) Carl Stephenson : Med. History. p. 580

(٢) Boissonade : op. cit. p. 174

(٣) Thompson : op. cit. Vol. I p. 401

(٤) Thompson : op. cit. pp. 401—402

والامتيازات التى حصلت عليها المدن الايطالية كانت سخية ، معفاة تماما من أية أعباء ، غير ملتزمة بالنظم الاقطاعية للفرنجة ببلاد الشام ؛ وقد تضمنت هذه الامتيازات منحة « الحى » Quarter الذى كان يشكل مقاطعة أو جزءا من الحكومة الأم فى الارض المقدسة ، مستقلة عن السلطة الشرعية الملكية (١) • وكان لكل مجموعة من التجار تنتمى الى مدينة ايطالية ما ، وكيل خاص بها Bailiff لرعاية مصالحها التجارية ، وكان لتلك المجموعات أيضا موازينها ومقاييسها الخاصة المتداولة فى الوطن الأم (٢) •

ومما لا شك فيه أن المستعمرات التجارية الايطالية ببلاد الشام ، كانت تدين بالولاء والاخلاص لحكوماتها الوطنية ، لاتثق فى مملكـــة بيت المقدس الاقطاعية ؛ وطالبت تلك المستعمرات مملكة بيت المقدس باستقلالها التام ، فحصلت عليه ، لأن الصليبيين كانوا لا يستطيعون الاستغناء عن أساطيلهم، ومن ثم منحوهم أعفاءات • وهكذا أنشئت الفنادق Fandachi أو الأحياء الأجنبية المستقلة فى موانى الشام ، وكلمة فنداكو Fondaco مشتقة من الكلمـة اليونانيـة باندوخيـون Pandocheion وهى التى تعنى مركز أو محطة تجارية ، ثم حرفها العرب بعد ذلك الى فندق Funduk والايطاليون الى فنداكو Fondaco (٣)

والفندق فى المقام الأول مجتمع متحد للتجارة ، يحتفظ فى البلاد الأجنبية بالعادات الاجتماعية والنشاطات التى يزاولها فى الوطن الأم ، أى يجعـــل الفرد يشعر أنه يعيش فى بلده الاصلى ؛ وفى داخل السياج المسور ، وهو غالبا مساحة كبيرة ، وجد دائما : كنيسة ، وشارع ، ومكان للسوق ، وميدان، وحمامات ، ومخابز ، ومصانع للجعة ، ومنزل للوكيل التجارى ، ومستودعات ضخمة لتخزين البضائع ؛ وقد شغل الفندق ـ أو المؤسسة ـ عادة مساحة تبلغ الربع الكامل لمدينة أو ضاحية منها (٤) • وقد عاش التجار فى تلك الفنادق

---

(١) Loc. cit.

(٢) Loc. cit.

(٣) Thompson : op. cit. Vol. I p. 402

(٤) Loc.cit. and Day : A History of Commerce. P. 87

وفقا لقوانينهم الخاصة ، وهو امتياز حرصوا دائما ان تحتوى عليه براءة الامتياز ، وفى بعض الأحيان كان يضاف شرط هام ، يقضى بأنه اذا جرى قيام دعوى قضائية بين مواطن وأجنبى ، فان القضية ينبغى ان تعرض أمام محكمة أجنبية تحكم طبقا للقانون الذى يتبعه الأجنبى (١) · ويمثل هذه الحقوق التى حصل عليها التجار الايطاليون كان من السهل عليهم أن يحتكروا تجارة الشرق · ومن الجدير بالذكر أن المستعمرات الايطالية ببلاد الشـــام كانت فى ايدى موظفين من أعظم العائلات الايطالية ، يعيشون من قبل حكومة الوطن ، وقد اطلق على الجنوية والبيازنة منهم القناصل Consoli وسمى البنادقة منهم باسم النواب (الوكلاء) Baili (٢) ·

والثلاثة الكبار ـ البندقية وجنوه وبيزا ـ احتل كل منهم مكانة اختلفت عن الأخرى فى موانىء الشام وفلسطين ، بمعنى أن البندقية تركز نشـــاطها التجارى ـ بشكل أعظم ـ فى البحر الايجى ، والقسطنطينية ، وموانىء آسيا الصغرى من الشرق ؛ وفى الشام احتل النشاط التجارى لجنوه المرتبة الأولى، تليها بيزا ، ثم امالفى حتى تفوقت عليها مرسيليا (٣) · وقد اهتم البعض من التجار الايطاليين بالحصول على أسواق ومراكز فى المدن الداخلية (٤) · أما البنادقة فلم يهتموا بالحصول على مراكز لهم فى المدن الداخلية ، عـــدا مدينة القدس ذاتها ، فى حين اهتموا بتركيز نشاطهم فى المدن الســـاحلية وبخاصة عكا ثم صور وصيدا وحيفا بعد ذلك (٥) · ولم تقتصر المنافع التجارية للصليبيين على المدن الايطالية ، فمرسيليا ـ كما قلنا ـ تمتعت بامتيازات مشابهة لمنافستها فى فلسطين ، واستفادت من الأرباح الناجمة عن نقل الحجاج والجنود (٦) ؛ ولم يقف الأمر عند حدد مرسيليا ، ففى خلال القرن الثانى عشر ظهرت الأساطيل الانجليزية والفلمنكية والالمانية والدانمركية والنرويجيـــة فى البحر المتوسط · أما الأسبان ، فقد كان دورهم ضئيلا فى الحروب الصليبية،

---

(١) Thompson : op.cit. Vol. I P. 402

(٢) Ibid : pp. 402—403.

(٣) Ibid. P. 404

(٤) Ibid. Loc. cit.

(٥) سـعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٢٢ ·

(٦) Archer : The Crusades. P. 437

فقد ظهر التجار من برشلونة فى صور خلال القرن الثانى عشر ، بيد أن تجارة مونتبلييه فى الشام الفرنجية ، كانت أعظم أهمية منها ، اذ حصلت على اعفاءات ، وصار لها قنصل فى عكا وطرابلس • كما أن السوريان والأرمن واليهود ، كانوا منافسين خطرين للجمهوريات البحرية الايطالية ذات الشهرة والاختصاص فى التجارة ، حتى أن المسلمين كان لهم بيوت تجارية فى المدن الافرنجية (٤) •

وعلى الرغم من أن الايطاليين ساعدوا الصليبيين فى فتح المدن ، ومن ثم حصلوا على مزايا هائلة فى الأرض المقدسة ، فان اهتمامهم الرئيسى بالتجارة ظل مستمرا فى مصر • فهم لم يعقدوا بالشام صفقات توازى ما عقدوه فى الاسكندرية التى حجز فيها الايطاليون طيلة العصر الوسيط كله فى احياء ضيقة عليها رقابة شديدة • والواقع أن تجارة الايطاليين مع الاسكندرية فى ذلك الوقت ، ضمنت لهم التجارة المربحة للبحر الاحمر ، ولهذا فان توقف الصليبيين وانحسارهم ببلاد الشام ، ثم طردهم فى النهاية ، كل ذلك لم يلحق الاذى بالتجارة الايطالية (٢) • ولايخفى أن الحجم الفعلى للتجارة التى تجرى فى موانى الشام الفرنجية ، يقل عن ذلك الذى كان يمارس فى القسطنطينية والاسكندرية • وعلى أية حال ، فان النشاط التجارى للمدن الايطالية ، سواء بالاشتراك مع الصليبيين أو من دونهم ، جعل لهم السيادة التامة على البحر المتوسط (٣) •

غير أنه لاينبغى أن ننسى ، أن الحركة الصليبية فى بلاد الشام ، أدت الى ازدياد الثروات للمدن الايطالية جنوه وبيزا والبندقية ، فضلا عن برشلونة وناربون ومرسيليا وغيرهم • فقد قامت اساطيل تلك المدن بنقل الحجاج والصليبيين من ناحية ، والتجارة فى السلع الشرقية التى نقلوها الى الغرب

---

(١) Thompson : op. cit. Vol. I P. 425
Chalandon : op. cit. P. 360

(٢) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، ص ١٧٦ •

(٣) توفيق اسكندر : نفس المرجع والصفحة •

من ناحية أخرى (١) • ولم تكن السلع التى أجتازت موانى الشام حتى السنوات المتأخرة من القرن الثانى عشر بالغة الضخامة • فرسوم الديوان (الجمرك)على السلع العابرة ، لم تتجاوز عشر قيمتها ، ولهذا كان من اليســـير أن ندرك السبب فى أنه قل أن عمرت خزانة الشرق الفرنجى بالمال ، وفى نزوع ملوك بيت المقدس فى معظم الاحوال الى القيام بالغارات فى الأوقات التى يتطلب فيها الشرف والدبلوماسية منهم المحافظة على السلام (٢) • ويعتبر القرن الثانى عشر ، والعشراوات الأولى من القرن الثالث عشر ، العصر الذهبى لما جنته الجمهوريات الايطالية من ارباح ببلاد الشام • غير أنه من المستحيل القول أن للصليبيين فى بلاد الشام علاقة بتطور التجارة الاوروبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فمن الواضح أن سلع الشرق من الحرير والسكر والتوابل وغيرها ، وصلت الى أوروبا قبل قيام الحروب الصليبية ، وكانت امالفى والبندقية هما المدينتان الرئيسيتان اللتان أمدتا الغرب الاوروبى بالسلع الكمالية • وبخروج امالفى من السباق ، نتيجة الغزو النورمانى لجنوب ايطاليا ، أدى الى تفوق البندقية التجارى فى الفترة التى بدأت فيها الخحروب الصليبية (٣) •

ومن الجدير بالذكر ، أن العلاقات كانت بين المدن الايطالية البحرية الثلاث ــ جنوه وبيزا والبندقية ــ لم تكن على صفاء مطلقا ، بسبب التنافس على المصالح التجارية • وقد انتقلت هذه الخصومات الى بلاد الشام ، حيث اشتد النزاع بين المدن الثلاث ، بل وصل الامر الى حد الاشتباكات فى شوارع عكا ، وتعداه الى حد التدخل فى النزاعات القائمة بين القوى السياسية فى بلاد الشام ، وليس من شك فى أن الخصومة بين المدن الايطالية ، وجشعها الذى

---

(١) Boissonade : Life and Work in Med. Europe. P. 174
C. Med. H. Vol. V. P. 329

سوتيا هاو : فى طلب التوابل ، ص ٤٢ ــ ص ٤٣ •

(٢) La Monte : Feudal Monarchy. PP. 171 - 173

(٣) C. Med. H. Vol. V. Pp. 328 - 329

لا ينطفىء ومنازعاتها الحادة ، كل ذلك أدى الى انهاك القوى الصليبية بالشام ، واودى بالبقية الباقية منها (١) ٠

ومن الامور التى أثرت فى النشاط التجارى لموانىء الشام تأثيرا خطيرا فى القرن الثالث عشر ، كانت غزوات المغول ، اذ شجع المغول التجار على اتخاذ الطريق البرى عبر امبراطوريتهم من الصين الى تركستان ، فموانى البحر الاسود أو ميناء اياس على البحر المتوسط ٠ كذلك أدى غزوهم للعراق الى اغلاق طريق الخليج الفارسى فبغداد فدمشق ، الامر الذى أثر فى تجارة الشام تأثيرا خطيرا (٢) ٠

ثالثا ـ طرق التجارة البرية والبحرية المؤدية الى الشام :

سلكت تجارة الشام على زمن الحروب الصليبية عدة طرق برية وبحرية، انتهت الى الساحل الشرقى للبحر المتوسط ٠ فعلى ذلك الساحل انتهت الطرق البرية التجارية الآتية من الشرق الأقصى ، ومن الخليج الفارسى ، ومن البحر الأحمر فى الفرع الممتد من أيله عبر سيناء والشام ، وكذلك الفرع القادم جنوبا من آسيا الصغرى والفرع القادم من أوربا برا ، ثم الطريق البحرى الرئيسى من غرب أوروبا وايطاليا (٣) ٠

ومن أشهر الطرق البرية المؤدية الى الشام ، والتى سهلت على التجار نقل الحاصلات والبضائع هى : ـ

١ ـ طريق الخليج الفارسى ـ بغداد : وهو أقدم الطرق البرية واهمها فى العصور الوسطى ، يبدأ من رأس الخليج الفارسى ، ثم يتجه بفروعه النهرية أو البرية من البصرة الى بغداد حيث يتفرع فرعين : يتجه الأول شمالا الى ديار بكر ، ويتجه الثانى غربا الى دمشق ، ومنها تخرج فروع

---

(١) Thompson : op. cit. Vol. I Pp. 420 - 421

سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١١٠٥ ـ ص ١١٠٦ ٠

شارل ديل : البندقية ، ص ٥١ ٠

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ص ١٢٦٢ ـ ص ١٢٦٤ ٠

(٣) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها أواخر العصور الوسطى ص١٤٦

الى موانى ساحل البحر المتوسط ، ثم جنوبا الى مصر ، وفرع يتجه شمالا بغرب الى حلب ، ثم الى آسيا الصغرى ، ليلتقى بالطرق القادمة من وسط آسيا برا ، ويتحد معها الى القسطنطينية (١) أحد نقاط الاتصال بين الشرق والغرب على زمن الحروب الصليبية (٢) • وقد فقد ذلك الطريق أهميته فى القرن الثالث عشر بسبب الغزو المغولى ، الذى قلب العالم الأسيوى رأسا على عقب ، والذى انتهى بقيام امبراطورية المغول ، التى امتدت من بكين وقراقورم على بحيرة بيكال حتى الشام (٣) • ولم يلبث المغول أن شجعوا التجار على أن يسلكوا الطريق البرى الاتى من الصين ، ثم يجتاز تركستان ، ثم يمضى الى جنوب بحر قزوين ، ويخترق فارس الى طرابيزون على الساحل الجنوبى للبحر الاسود ، أو الى اياس فى مملكة قليقية بأرمينية ، ومن الطبيعى أن تطور اياس يقلل من أهمية الموانىء الفرنجية (٤) •

٢ ـ طريق الشام ـ مصر : يتجه ذلك الطريق من دمشق الى طبرية، ثم الى اللجون ، ثم الى الرملة ، ومن الرملة الى غزه ، ثم الى العريش ، ثم الى الفرما ، ثم الى القاهرة (٥) • وقد كانت القوافل التجارية تسلك ذلك الطريق الى أن قامت الحروب الصليبية ، وبنى بلدوين حصن الشوبك ، ومن ثم أخذ يوجه غاراته على العريش ، مما أدى الى اغلاق ذلك الطريق من ناحية، وسيطرة الصليبيين على طرق القوافل من ناحية أخرى • ولما استرد المسلمون بيت المقدس على يد صلاح الدين ، عادت القوافل التجارية الى طـــريق الســـاحل (٦) •

٣ ـ طريق القسطنطينية ـ انطاكية : وهو طريق برى ، يبدأ باختراق جبال طوروس خلال الدرب الكبير المعروف بابواب قيليقية ، الى قيليقية ،ثم

---

(١) Day : op. cit. P. 84

(٢) مفيم زكى : المرجع السابق ، ص ١١٧ ـ ص ١١٨ •
C. Med. H. Vol. IV P. 762

(٣) ديل : البندقية ، ص ٦٢ •

(٤) Heyd : op. cit. Vol. II Pp. 70 - 74

(٥) المقريزى الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٦ •

(٦) نفس المكان •

يجتاز سلسلة جبال أمانوس الى انطاكية خلال الدرب ، المعروف باسم أبواب الشـــام (١) ٠

٤ ـ طريق وسط آسيا : ويبدأ ذلك الطريق البرى من وسط آســـيا ومن الهند عبر جبالها وممراتها الى نهر الأثيل ، وتقابل مع القوافل الوافدة من الصين ، ثم يسيران معا حتى بخارى ، حيث يتفرع فرعين : الاول الى بحر قزوين ، والثانى يتجه الى البحر الاسود وموانيه ، ثم القسطنطينية وأوروبا ، وتخرج منه فروع جانبية الى حلب ساحل البحر المتوسط (٢) ٠

٥ ـ طريق اليمن ـ مكة ـ الشام : وهذا الطريق فى غربى شبه الجزيرة العربية ، تقطعه القوافل بحذاء البحر الاحمر ، من اليمن حتى تصل الى مكة، ومنها الى البتراء شمالا ، ومن البتراء الى أسواق الشام أو مصر أو بلاد ما بين النهرين (٣) ٠ وقد استخدمت شبه الجزيرة العربية ، منذ القدم كمحطة تجارية للعبور بين الهند وأوروبا ، عن طريق مصر والشام (٤) ٠

٦ ـ الطريق البرى من غرب أوروبا الى المشرق : ويبدأ هذا الطريق من بلاد الاندلس الى طنجة عبر مضيق جبل طارق ، مجتازا المغرب الاقصى والاوسط والادنى عن طريق تونس ، حتى يصل الى مصر ، ثم يتجه الى بلاد الشام مارا بالرملة ودمشق (٥) ٠

وعلى أية حال ، فاننا اذا امعنا النظر فى خريطة قارة آسيا ، لوجدنا أن بلاد الشام كونت حاجزا الى حد ما ، بين آسيا والبحر المتوسط ، فعن طريقها ظلت الطرق التجارية متصلة بأوروبا (٦) ٠

---

(١) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ ـ ص ٢٧٠ ٠
(٢) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٥٤ ٠
(٣) على الســـليمان : النشـــاط التجارى فى شبه الجـــزيرة العربية ، ص ١١٢ ـ ١١٣ ٠
(٤) Nau : Les Arabes Chrétiens. P. 7
(٥) جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، ص ١٥٠ ٠
(٦) Thompson : op. cit. Vol. I P. 404

أما الطرق البحرية التجارية المؤدية الى الموانىء الشامية ، على الساحل الشرقى من البحر المتوسط ، فمن الجدير بالذكر ، أنه لم تكن هناك طرق مباشرة بين شرقيه وغربيه • وانما تخـــرج السفن من المدن الايطالية وجمهورياتها متفرعة غربا الى غرب اوروبا ، وشرقا الى مصر والشـــام والاناضول ، مارة بمراكز عدة : فمن البندقية شمالى الادرياتى تخرج السفن فى طريقين ، يسير الاول بحذاء ساحل دلماشيا مارا براجوزا ، ثم الى كورفو ويدور حول شبه جزيرة المورة ، وعندها ينقسم قسمين يتجه احدهما الى ساحل الشام مارا بكريت ورودس وقبرص وموانىء بيروت وطرابلس الشام وعكا ، ويتجه الآخر الى الاسكندرية مباشرة ، أما الفرع الآخر فيتجه غربا (١)•

ومن الطرق البحرية الى وصلت الى موانىء الشام ، طريق بحرى من الشرق الاقصى الى البحر الاحمر ، ثم يتجه شمالا بعد أن يترك البحر الاحمر ، عبر سيناء الى دمشق ، ثم موانىء ساحل البحر المتوسط •

ومنذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، بعد غزو المغول لغـرب آسيا ، وتعطيل الطريق التجارى البرى من وسط آسيا ، وطريق البحـر الاحمر من أكثر الطرق التجارية اهمية بين الشرق والغرب ، فهو بعيد عن ميادين الحرب بين المغول والمماليك (٢) •

وبلغت حركة الملاحة البحرية القادمة الى موانىء الشام بالســـاحل الشرقى من البحر المتوسط ، على زمن الحروب الصليبية ، درجة عالية من الازدهار والنشاط • ومن المشاهد ان الملاحة فى البحر المتوسط ، اضحت احتكارا على سفن الجمهوريات الايطالية البحرية وسفن الغرب الاوروبى، ذلك لأن الفرنجة نجحوا ، بمساعدة الجمهوريات الايطالية ، فى فرض حصار بحرى على السفن الاسلامية فضلا عن انهم بذلوا أقصى جهودهم لانتزاع الموانى الفلسطينية من أيدى مصر (٣) • وقد نشطت حركة نقل الحجاج بعد قيام الكيان الصليبى ببلاد الشام ؛ فمما لاريب فيه أن الحجاج فضـــلوا

---

(١) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٧٨ •
(٢) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٢٤ ـ ص ١٢٥ •
(٣) Grousset : op. cit. T. I P. 185

الطريق البحرى ، لأن الطريق البرى عبر الاناضول كان مازال معرضا للخطر، ولا يستطيع اختراقه الا جماعة جيدة التسليح (١) • بيد أن الحاج الذى كان يفضل الابحار الى الاماكن المقدسة ، لابد له فى هذه الحالة أن يحصل على مكان له فى سفينة ايطالية ، ووصلت أجور السفر بحرا الى حد بالغ الارتفاع• وقد يجتمع عدد من الحجاج سويا ، فيستأجرون السفينة بأكملها • على أن الحاج القادم من شمال فرنسا او انجلترا ، كان من الاوفر له أن يرتحل فى قافلة صغيرة من السفن المتجهة الى الشرق ، ولكن ذلك الطريق كان محفوفا بالاخطار ، اذ قد تتعرض تلك السفن لهجمات القراصنة المسلمين المتربصين فى بوغاز جبل طارق ، وعلى كل حال ، فان الجماعات الكبيرة من الحجـــاج ارتكنت على اساطيل المدن التجارية الكبيرة •

وتميزت سفن البحر المتوسط التى قامت بنقل الحجاج الى موانىء الشام ، بفخامتها وتفوقها على أية سفن أخرى • غير أنه من الصعب الاعتقاد أن بعض تلك السفن استطاعت نقل الف حاج أو الف وخمسمائة حاج على ظهرها (٢) • ومن المحتمل أن السفينة استطاعت نقل ما يربو على مائة حاج، اذ من المؤكد أن حمولتها تراوحت بين اربعمائة وخمسمائة طن • وتحسنت الملاحة تحسنا هائلا ، وأخذت اسرع السفن مجرى مستقيما ، بدلا من أن تظل قريبة من الساحل ، جارية من خليج الى خليج ، ومن جزيرة الى أخرى؛ واستطاعت السفينة الشراعية الكبيرة ذات المجاديف ، فى حالة تيســـر الطقس المعتدل ، وهدوء البحر ، أن تبحر من مرسيليا الى عكا ، خلال خمس عشرة يوما (٣) •

ويرتبط ببداية الحروب الصليبية ، التقدم الهائل فى قوانين الملاحـــة البحرية بسفن البحر المتوسط ، وتتعلق تلك القوانين ببناء السفينة واعدادها وحمولتها (٤) • ويرجع الفضل الى الصليبيين ، فى وضع الاصول الاولى

---

(١) رنسيمان : الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٥٠٦ •

(٢) Day : op. cit. P. 71 &
Boissonade : op. cit. P. 174

(٣) Thompson : op. cit. P. 430

(٤) Ibid. Loc. cit.

للقانون البحرى التجارى ؛ وقد احتوت قوانين بيت المقدس على مجموعة من النظم والقوانين البحرية ، نستدل منها على التنظيمات التى وضعها ملوك وامراء غرب أوروبا لأساطيلهم فى البحر (١) • وعرفت الملاحة البحرية ، تأسس « قانون السفن » Ship Law الذى نظم العلاقة بين البحارة والمسافرين (٢) •

ومن الصعوبات التى واجهت النقل البحرى فى ذلك الوقت العرف المتبع، وهو انه اذا جنحت سفينة ولقى الموج بها او ببضائعها على الشاطىء ، فانها تصدير غنيمة لصاحب الارض التى جنحت اليها السفينة (٣) • ففى عام ١١٧١م (٥٦٧ هـ) ، ابحرت بعض السفن من مصر الى الشام ، وعند رسوها فى ميناء اللاذقية ، استولى الفرنجة على سفينتين محملتين بالامتعة والتجار المسلمين؛ وكان الفرنجة قد وقعوا هدنة مع نور الدين محمود ، فلما بلغه خبر السفينتين، طالبهم بهما ، ولكنهم احتجوا عليه بأن المركبين قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما ، وان « العادة جارية بأخذ كل مركب يدخله الماء (٤) » •

وقد حدث أيضا لاسرة اسامة بن منقذ ان ابحرت فى سفينة فرنجية من دمياط الى الشام ، وعندما دنت السفينة من عكا ، خرج اليها رجال ملك عكا، وكسروها بالفؤوس ، ونهبوا كل مافيها من اموال ومتاع، بحجة أنها انكسرت، ومن حقهم نهبها (٥) • وعلى هذا فقد حرص السلاطين المسلمون فى معاهداتهم مع الفرنجة ، على ان تنفذ السفن متى تعرضت للغرق فى المياه ، وترد الاموال لاصحابها ، وخير معاهدة لذلك ، تلك التى عقدها السلطان الملك منصور قلاوون مع الفرنجة فى ٣ يوليو ١٢٨٣ م (٦٨٢ هـ) (٦) •

ويتصل بموضوع النقل البحرى التجارى فى البحر المتوسط ، نظام قوافل السفن الموسمية • فلا تكاد تخلو معاهدة من معاهدات العصور الوسطى

---

(١) Archer : op. cit. P. 438

(٢) Thompson : op. cit. P. 430

(٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ١١٦ •

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ ـ ص ٢٢١ •
ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٦٧ هـ •

(٥) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٣٤ ـ ص ٣٥ •

(٦) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٩٨٥ ـ ص ٩٩٢ •

من الاشارة اليها فى مجال عددها ومواعيدها ونظمها ، وهى المعروفة فى تاريخ البندقية التجارى البحرى باسم نظام « المدة » وهو يقابل كلمة « قافلة » بحرية تجارية (١) • ومن القوافل التى كانت للبندقية قافلة الشام ، التى كان وصولها الى الشرق ايذانا بعودة النشاط الى الصفقات التجارية ، وكذلك كانت عودتها من الشرق ينتظرها الاهالى بفارغ الصبر (٢) • وقد رتبت البندقية مواعيد سفر سفنها التجارية الى الشام بما يتفق الى حد كبير مع أوقات هبـــوب الرياح ، ومع ترتيب عقد الاسواق الموسمية فيها ؛ وانتظمت رحلات سفنها فى اربع مراحل ، ففى الرحلة الأولى تخرج السفن من البندقية فى شهر يناير لتصل موانىء شرق البحر المتوسط فى شهر مارس ، ثم تقوم من هذه الموانىء بعد توسيق سفنها فى شهر ابريل لتصل للبندقية فى شهر يونيو ، ولدى عودتها للبندقية تتجهز للرحلة الثالثة التى تبدأ فى شهر يوليو وتصل لمقصدها فى شهر سبتمبر ، وتعود فى شهر اكتوبر لتصل البندقية فى شهر ديسمبر ، وتتجهز للرحلة فى شهر يناير ، وهكذا (٣) •

وطوال العصور الوسطى ، ظلت الشام منطقة عبور للتجارة الشرقية والغربية ، وعرف هذا النظام باسم « تجارة العبور أو الترانزيت » ، فتصـــل السفن الاوروبية لموانىء الشام ، حيث تجد تجار المنطقة ، وقد جلبوا المتاجر والسلع الشرقية من الهند والشرق الاقصى ووسط آسيا وافريقية ، فيتوالون نقلها الى أوروبا (٤) •

رابعا ـ أهم المراكز التجارية :

من المعروف أن العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ، وجدت قبـــل الحروب الصليبية بزمن طويل ، ولكن الغزو الصليبى لبلاد الشام أثر فيهـا بشكل خاص • اذ صارت تجارة البحر المتوسط كلها ـ بوجه التقريب ـ فى

---

(١) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ •
(٢) شارل ديل : البندقية ، ص ٢٨ ـ ص ٢٩ •
(٣) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ •
(٤) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٥٧ •

أيدى الجمهوريات البحرية الايطالية ومدن جنوبى فرنسا (١) • وقد استقر فى المدن الشامية ، لاسيما الساحلية ، العديد من التجار الاوروبيين والارمن واليهود ، بالاضافة الى الوطنيين • ومما زاد فى الاقبال على الاستقرار ، أن الشام ، نقطة اتصال بين تجارة الشرق وتجارة الغرب ، فعن طريقه أتت سلع وحاصلات آسيا الوسطى والشرق الاقصى • هذا بالاضافة الى الوافدين من حجاج الغرب الأوربى والمغامرين وغيرهم •

وفى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، كانت مدن وموانى الشام مراكز emporia لتجمع السلع ، أقام فيها التجار للاشراف على مصالحهم التجارية • وفى خلال القرن الثانى عشر ، ازدهرت على الساحل بعض المدن الواقعة تحت سيطرة الصليبيين مثل عكا وصور وبيروت وطرابلس وانطاكية واللاذقية ؛ كذلك كانت حلب ودمشق وحماه وحمص أهم المراكز التى كانت فى أيدى المسلمين (٢) • وشاهد القرن الثالث عشر اختفاء أهمية مدن تجارية مثل عسقلان وانطرطوس وجبلة ، وتضاؤل أخرى مثل يافا واللاذقية وصيدا؛ وفى الداخل عانت حمص نفس الأفول ، ويرجع السبب فى ذلك الى زوال النفوذ الايوبى ، فضلا عن الغزو المغولى للشرق الادنى ، مما ادى الى تغيير خريطة الشرق التجارية (٣) • وعلى أية حال ، فان مدن عكا وصور وبيروت وطرابلس وانطاكية ، ظلت تؤدى عملها حتى زوال الكيان الصليبى ؛ أما حلب ودمشق، فقد ظلتا ــ الى حد ما ــ المراكز الرئيسية للنشاط الاقتصادى فى الأجزاء الداخلية من الشـــام (٤) •

وكانت عكا أهم المدن الساحلية ببلاد الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لها ميناء آمن صالح لرسو السفن (٥) ، تمتعت بنفوذ تجـارى

---

(١) Chalandon : op. cit. P. 359

(٢) Ziadeh : Urban Life in Syria. P. 134

(٣) Loc. cit.

(٤) Loc. cit.

(٥) Ziadeh : op. cit. P. 135

عظيم ، فاق أى ميناء آخر ، وقـــد شبهها ابن جبير فى عظمتها بمدينـــة القسطنطينية ، لانها كانت « مجتمع السفن والرفاق » وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضـــيق فيها مواطىء الأقدام (١) » ، كما وصف أبو المحاسن (٢) عكا قائلا : « كانت مظنة التجار » • وتعتبر عكا انشط الموانىء فى التجارة ، وكانت الميناء الطبيعى لدمشق ، ولم تستخدم فحسب لمنتجات مصانع دمشق وأراضى حـــوران الخصيبة بل افاد منها ايضا ، التجار القادمون من اليمن ، الذين سلكوا طريق الحجاج بحذاء حافة ساحل بلاد العرب ، وآثر الوافدون الى الاماكن المقدســة ــ بحرا ــ النزول بها لا بيافا ؛ على أن العيب الوحيد فى ميناء عكا ، هو أن الميناء الداخلى بلغ من الصغر انه لم يتسع للسفن الكبيرة فى ذلك الوقت ، فكان من الضرورى أن ترسو تلك السفن خارج حاجز المياه ، فتتعرض للريـــاح الجنوبية الغربية ، ولما أن تمضى ازاء الساحل الى ميناء صور الذى يفوق ميناء عكا اتساعا وأمنا (٣) •

وازدهرت بيروت على عصر الصليبيين ، كمدينة غنية ، قوية ، مزدحمة، تميزت بميناء ممتاز (٤) • ويصفها ابن حوقل قائلا : « وتجارات البحر عليها دارة واردة وصادرة » (٥) ، وجمرك بيروت من أغنى جمارك الشام وأحفلها ، وتمر به السلع التى تصل الى دمشق من البحر المتوسط أو التى تخرج منها الى أوروبا ، كما أنه السوق الطبيعية لمنتجات دمشق المحلية (٦) •

واستحقت اللاذقية عن جدارة ، أنها خير ميناء فى شمال الشام ، نظرا لأنه صالح لكل مناخ وطقس ، على الرغم من أن السويدية الواقعة على مصب

---

(١) رحلة ابن جبـــر ، ص ٢٧٦ •
(٢) النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٥ •
(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٦١٠ •
(٤) Ziadeh : op. cit. PP. 135 - 136
(٥) المسالك والممالك ، ص ١٧٦ •
(٦) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٤٨ ــ ص ١٤٩ •

نهر العاصى كانت أكثر منالا لأنطاكية وحلب ، وفضلا عن ذلك ، فان ميناء اللاذقية ، كان على اتصال سهل برودس وقبرص (١) ٠

ومن أهم المراكز التجارية فى شمالى الشام ، مدينة حلب ، التى تقع فى أرض سهلة ، غزيرة المياه ، على بعد عشرين فرسخا من الفرات ؛ ومنذ عهد بعيد موغل فى القدم ، كانت حلب نقطة يلتقى فيها الطريق الآتى من الخليج الفارسى حتى نهر الفرات ، مع طريق القوافل الآتى من آسيا الوسطى ،حيث تنقل السلع الى موانى البحر المتوسط (٢) ٠ كذلك كانت حلب مركزا لتجمع القوافل التجارية الآتية من آسيا الصغرى والشام ، مارة الى بغداد وفارس والهند داخل آسيا (٣) ٠ وتميزت حلب بثرائها الهائل على زمن الحروب الصليبية ، وعمرت بالاسواق الواسعة ، والقياصر والحمامات ، ودأب التجار على جلب مختلف الحاصلات اليها ، وظلت محتفظة بأهميتها التجارية حتى الغزو المغولى ، ومع أنها قاست الكثير على يد المغول ، الا أنها سـرعان ما استعادت مركزها (٤) ٠ ومن خصائص أسواقها ، أن ما يعرض بها من سلع ينفد ساعة وصوله ، وفاقت فى ذلك القاهرة ، « اذا أحضر اليها مائة حمل حرير ، فانه يباع فى يوم واحد ، ويقبض ثمنه ، ولو حضر الى القاهرة التى هى أم البلاد عشرة احمال لاتباع فى شهر وعلى هذا فقس ! (٥) » ٠

واحتل ميناء طرابلس اهمية بالغة فى تجارة الشام الخارجية والداخلية ، وهو مخرج تجارة منطقة حلب ، وصلة التجار الأجانب من آسيا وأوروبا ، والوطنيين من حمص وحلب ودمشق وحماه وبعلبك (٦) ٠ ويصل الى ميناء طرابلس تجار الفرنجة ، محملين بمختلف السلع (٧) ؛ وطرابلس كمدينة ، كانت عامرة بالأسواق والفنادق والمصانع (٨) ٠

---

(١) Ziadeh : op. cit. P. 66

(٢) Thompson : op. cit. Vol. I P. 360

(٣) Loc. cit.

(٤) Ziadeh : op. cit. P. 136-137

(٥) ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ حلب ، ص ٢٥٤ ٠

(٦) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٥١ ٠

(٧) ابن الشحنة : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ ٠

(٨) Ziadeh : op. cit. . 136

ولاريب أن ميناء صور قد احتل المركز الثانى على الساحل ، خلال الوجود الصليبى ببلاد الشام ، وأتى اليه التجار من جميع انحاء العالم ، مما أدى الى تأثر فيترىVitry بالعدد الهائل من السفن الراسية فى الميناء (١) • ويبدو أن صيدا لم تكن قادرة على منافسة عكا وصور فى عهد الصليبيين (٢) • وتعتبر صيدا منفذا لدمشق (٣) •

ودمشق كانت من المدن البالغة الاهمية ابان الحروب الصليبية ، فهى مستودع تجارة وسط آسيا الى أوروبا ، وتتصل بالبحر المتوسط بطريق ميناء بيروت الذى يبعد عنها مسيرة يومين (٤) • وأمتلات دمشق بالمتاجر الكبيرة، والاسواق الكاملة العامرة بالحاصلات ، وما من شىء يرغبه المرء الا وجـــده فى أسواقها ، ولم يكن يفوق ثروتها وتجارتها الا القاهرة (٥) •

وانطاكية من المدن القديمة التى تقع فى شمال الشام ، وسط ســـهل خصيب فى الحوض الادنى لنهر العاصى Orontes (٦) • وتصب فى انطاكية الطرق الأرمينية وأعالى الجزيرة ، الأمر الذى أدى الى أن أضحت تلك المدينة المستودع الرئيسى للحاصلات الواردة من الهند والصين ، فضلا عن كونها أحد المراكز الكبيرة للتجارة الشرقية بالنسبة للغرب (٧) • ولكن سقوط تلك المدينة فى أيدى المغول عام ١٢٦٨ م ، أصابها بلطمة ، جعلتها تفقد أهميتها التجارية، فنظرا لان الحد الفاصل بين امبراطورية المغول وسلطنة المماليك يمتد على نهر الفرات ، لم تعد التجارة القادمة من العراق والشرق الاقصى تجتاز حلب، بل التزمت بلاد المغول ، وانتهت الى البحر المتوسط عند اياس فى قيليقية (٨) •

---

(١) Ibid. 135

(٢) Ibid. 136

(٣) أحمد عارف الدين : تاريخ صيدا ، ص ٧٧ •

(٤) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٤٧ ــ ص ١٤٨ •

(٥) Z'adeh : op. cit. P. 137

(٦) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة انطاكية •

(٧) Hulme : The Middle Ages. PP. 479 - 480

(٨) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٥٥٩ •

خامسا ـ أهم السلع التى كانت محور النشاط التجارى :

لعبت بلاد الشام ـ كما رأينا ـ على زمن الحروب الصليبية ، دور الوسيط التجارى فى نقل السلع والحاصلات بين الشرق الادنى والاقصى من جهة وبين الغرب الاوروبى من جهة أخرى • ومما زاد فى أهمية ذلك الدور الطرق البرية والبحرية التى تمر عبر بلاد الشام • وتجمعت فى اسواق تلك البلاد مختلف الحاصلات ، التى قام بنقلها الجمهوريات الايطالية البحرية ، ومدن جنوب فرنسا ، فضلا عن التجار الوطنيين •

وقد اولع الغرب الاوروبى بالسلع الشرقية ، واشتد اقباله عليها ،خاصة التوابل التى حازت المكانة الاولى بين تلك السلع حتى نهاية العصـــور الوسطى ، وقد اعتاد الغربى استعمالها فى الاطعمة منذ الحروب الصليبية ، أما لشدة البرد فى أوروبا ، أو لتبتل الطعام وحفظه ، أو لاستعماله كعقار طبى (١) والواقع أن التوابل التى استوردت من وسط آسيا والشرق الاقصى ، صارت من الضروريات فى الغرب الاوروبى على زمن الحروب الصليبية ، اذ أحدثت تغييرا فى عادات النبلاء والاشراف ، وساهمت فى توفير وسائل الراحـــة والرفاهية للغرب الأوروبى (٢) • واستعملت التوابل بصفة مستديمة فى طهى الطعام وصنع النبيذ والبيرة المتبلة ، وان ساعات الشتاء لتبدو طويلة لمن لم يساعد الحظ على احتساء فنجان منشراب دافىء مزج بشىء من التوابلوالبهارات فالفلفل ، والجنزبيل ، وجوزة الطيب ، والقرنفل ، والقرفة ، كلها كانت مبعث انتعاش للقلوب ودواء للامراض (٣) • وبالاضـــافة الى ذلك الأفاوية التى استخدمت فى الاغرض الطبية : الراوند والألوية (الصبر) الذى استخدم كمسهل ، والبلسم ، واللبان الجاوى الذى استخدم فى الطب وصناعة العطور، والكبابة (حب العروس) الذى استخدم فى علاج الاضطراب البـــولى ،

---

(١) توفيق اسكندر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ •

(٢) Thompson : op. cit. Vol. I PP. 430 - 431

(٣) سونيا هاو : فى طلب التوابل ، ص ٢٢ •

والكافور (١) • ومن الواضح أن أوروبا الغربية لم تتصل عن كثب بصنوف الحياة فى الشرق الا بعد قدوم فرسانها الصليبيين ، لانتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وترتب على ذلك ازدياد الحاجة للتوابل بصورة ملموسة ، ومن أجل التوابل ، ظلت بلاد الشام الهدف الاول للسفن الاوروبية ، الى أن جاء اليوم الذى تم فيه اكتشاف طرق بحرية جديدة ، تمكن البرتغاليون من خلالها أمداد أنفسهم بالتوابل من منابعها مباشرة (٢) •

وعلى عصر الحروب الصليبية ، ذاع صيت الشام فى صناعة الزجاج والتحف الزجاجية ، لوفرة المواد الاولية اللازمة لهذه الصناعة ، واحتلت صور وحلب ودمشق وانطاكية ، مكانة فائقة ، كما صنع الخزف فى عدة اماكن من الشام (٣) • وأدهش الاوروبيون قطن الشام لجودته ، ومن المدن التى تفوقت فى زراعته حلب وحماه ، لخصوبة أراضيها (٤) • واحتكر التجار الجنويين والبنادقة تجارة الشب فى ميناء عكا (٥) •

ومن أهم منتجات الشام قصب السكر ، الذى لم يكن معروفا فى أوروبا قبل الحروب الصليبية ، فلما أتى الصليبيون الى الشام تذوقوه لأول مرة، خلال حصار انطاكية من ٢٠ اكتوبر ١٠٩٧ م الى ٢٨ يونيه ١٠٩٨ م ، فقد كتب وليم المالسبورى William of Malmesbury « زادت غزارة الامطار من آلامنا، ولماكان الكثير من التعساء لايملكون سوى مايرتدونه ،ماتوا من قسوة البرد ، اذ لم يكن لديهم غطاء يلتحفون به لأيام عديدة ، ولوحظ النقص فى الخيم والأخشاب ، ومن أجل تهدئة غائلة الجوع ، وجد التعساء ضالتهم فى نبات حلو ، صاروا يمضغونه باستمرار ، أطلقوا عليه عصا وعسل Cannamel وقد تحدث البرت الأكسى Albert of Aix عن قصب السكر قائلا : «يزرع

---

(١) Day : op. cit. p. 80

(٢) Pirenne : Economic and Social History of Med. Europe. P. 143

(٣) زكى محمد حسن : الفنون الاسلامية ، ص ٦٠٧ •
سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ١٩٠ ـ ص ١٩١ •

(٤) Heyd : op. cit. Vol. I P. 612

(٥) Ziadeh : op. cit. P. 135

هذا النوع من العشب سنويا بمجهود كبير • وعندما ينضج يسحقه أهل الشام في هاون ، ويصفون العصير ، ثم يضعونه في أوان حتى يتجمد ويتصلب . فيشبه الجليد أو الملح الابيض ، ويطلقون على تلك العصى السكر Zucra(١) وتعلم الصليبيون من السكان الوطنيين طريقة استخراج السكر من القصب ، واشتهرت طرابلس وبيروت وصور بزراعته ، وتعتبر الأخيرة المركز الرئيسى لصناعته ؛ ومعظم ما كان يستهلك من السكر فى أوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، جاء من بلاد الشام (٢) • وقد استخدم سكر الشرق الفرنجى فى الغرب الأوروبى فى العلاج وعلى الموائد الشهية ، بدلا من عسل النحل الذى كان شائع الاستعمال قبيل الحروب الصليبية ، واهداء قطعة من السكر فى ذلك الوقت ، يعنى ذلك مدى الحب الشديد للمهدى اليه (٣) •

وعلى الرغم مما اشتهرت به فلسطين من اشجار الزيتون ، فمن الراجح أن زيت الزيتون ، لم يصدر الى الغرب الاوروبى الا فى كميات ضئيلة ؛ وفى نفس الوقت شوهدت فواكه فلسطين النادرة مثل الليمون الحلو ، والرمان ، على موائد الأغنياء فى ايطاليا (٤) •

وشملت السلع التى وصلت الى أسواق بلاد الشام العطور ، والبخور، ومن أنواعها : عود الند ، والمسك ، وخشب الصندل ، والعنبر ، والبخور، واللادن ، والمصطكى ، وقد ورد معظمها من اسواق الشرق الاقصى (٥) •

ولا ريب أن مدينة بيت المقدس أحرزت شهرة هائلة على أيام الحروب الصليبية ، لما لها من مكانة دينية فى قلوب المسيحيين • لهذا شهدت فترة

---

(١) Thompson : op. cit Vol. I. 395

(٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٦١ •
المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الممالك ، ص ١٨٠ •
Heyd : op. cit. Vol. I PP. 178 - 179

(٣) Day : op. cit. P. 80

(٤) Heyd : op. cit. Vol. I PP. 177 - 178

(٥) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٦٢٦ •

الحروب الصليبية العديد من الحجاج الوافدين الى الارض المقدسة • ومن الطبيعى أن الحاج راقته فى تلك المدينة التحف الفنية الشرقية ، تعرض فى الحوانيت الصغار ، منها التحف الفنية المسيحية ، والمسابح ، والصلبان، والمصابيح الدينية ، والصور ، والايقونات (١) • وربما اشترى الحجاج مذاخرا (علبا) عربية الطراز لحفظ المخلفات المسيحية ، أو لبسوا ونقلوا المنطقات الشرقية ذات الاكياس الى باريس بغية تقليدها (٢) •

وتجارة العبيد أو الرقيق ، وهى تجارة الانسان فى أخيه الانسان ،كانت فى أيدى التجار البنادقة والجنوية ، الذين أثروا ثراء فاحشا من جـــــراء مزاولتها ، ووصل مندوبون عنهم الى البلاد البعيدة ، حتى بلغوا بلاد ماوراء النهر ، ولهذا اضحى سوق الرقيق يقوم عليه تجار جنوة والبندقية ، يضم أصنافا مختلفة ، والوانا غير متجانسة ، منهم الارمنى والنوبى والقوقازى والفارسى والهندى والديلمى ، واليونانى والروسى ، وقد اشتد الاقبال على شراء الرقيق اقبالا عظيما ، مما يدل على مغالاة النخاسين فى الأثمان ، وكثرة الضرائب التى يدفعها التجار عن الرؤوس التى يجلبونها ونوعها (٣) • وقد وجدت فى الشام اسواق لبيع الرقيق فى المدن الكبيرة ، مثل عكا (٤) •

ومن المصنوعات الهامة التى عرفت بها بلاد الشام ابان الحـــروب الصليبية ، المنسوجات • صحيح أن أوروبا كانت على مقدرة كافية فى صناعة السلع الكتانية والصوفية التى صدرتها بكميات معقولة الى آسيا ، ولكن مهارتها الفنية كانت عاجزة فى مصنوعات القطن والحرير ، لعدم وجود الحرفيين أو الصناع الماهرين البارعين فى تلك الصناعة ، لهذا استوردت أوروبا كميات كبيرة من الاقمشة الجاهزة من الشام • وقد احتاج أصحاب المناصب الرفيعة فى الكنيسة ، والامراء ، للملابس المطرزة بالقصب أو بالذهب أو بالفضـــة ،

---

(١) Pierre Loti : Jerusalem. P. 53

(٢) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٣ •

(٣) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ١٤٨ •

(٤) Richard : Le Royaume Latin. P. 122

والقطيفة والاطلس (الساتان) التى تفوقت على جميع المنسوجات الغربية ،وكل تلك الملابس كانت ترد من الشام (١) • وقد انتجت مدن شامية عديدة ،صناعة المنسوجات ، مثل حمص وحماة وطرابلس وبعلبك وحلب وصور ودمشق وانطاكية ، وتفاخرت طرابلس بان لديها ٤٠٠٠ نول حرير ، وكان بها ٤٠٠٠ عامل ، يعملون فى صناعة المنسوجات الحريرية (٢) • وكثر الطلب فى أوروبا على حرير الشرق المعروف باسم البروكار ، والذى كان يجلب من الاسكندرية، وطرابلس ودمشق وانطاكية (٣) • وبعض المنسوجات الحريرية ، خلدت أماكن صناعتها الاصلية ، فالموسلين من الموصل والدماسك من دمشق (٤) •

ومن الصناعات التى وجدت فى الشام على زمن الحروب الصليبية ،صناعة الورق ، واشتهرت دمشق وحلب بها (٥) ؛ وعندما عرف الأوروبيون الورق عن العرب ، أطلقوا عليه اسم « الصحائف الدمشقية » Charta Damascena نظرا لأن دمشق كانت سوقا رئيسيا لتجارة الورق (٦) • كذلك كان الصابون من الصناعات التى انتشرت فى انطاكية وطرسوس وعكا (٧) • ومن المرجح أن الأوروبيين قد اقتبسوا صناعة الحلى المنقوشة ، من تلك السلع العربية التى دخلت اوروبا ، عن طريق التجارة ، أو التى جلبها معهم الصليبيون عند عودتهم من الشرق (٨) •

أما السلع التى كانت تأتى من الغرب الاوروبى الى بلاد الشام خلال فترة الحروب الصليبية ، كانت تتمثل فى الثروات الطبيعية والحاصلات والمواد الخام ، مثل الحديد والنحاس والصوف والعبيد (٩) •

---

(١) Day : op. cit. P. 83

(٢) Heyd : op. cit. Vol. I P. 179

(٣) نعيم زكى : طرق التجارة ، ص ٢٤٦ •

(٤) Cheyney : The Dawn of a New Era. P. 9

(٥) Ziadeh : op. cit. P. 133

(٦) سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ١٨٧ •

(٧) Thompson : op. cit. Vol. I P. 404

(٨) سعيد عاشور : النهضات الاوروبية ، ص ٢٧٥ •

(٩) Orton : Outline of Med. History. P. 222

وهكذا توافرت فى الشام مختلف السلع والمصنوعات التى شاعت فى الغرب الاوروبى ، ووجدت اقبالا شديدا لدى شعوب الغرب الأوروبى ، مما أدى الى تشجيع الحروب الصليبية للتجارة الدولية ، والمساهمة فى اثرائها ٠

سادسا ـ النظم والمعاملات التجارية :

بعد أن استولى الفرنجة على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، وقامت مملكة بيت المقدس الصليبية ، التى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان ، ظهرت مشكلة أرقت الكيان الصليبى ٠ تلك المشكلة هى التناقص الشديد فى اعـــداد اللاتين ؛ صحيح أن العديد من الصليبيين لاقوا حتفهم خـــلال الزحف على الشام ، ولكن العديد ايضا فضل العودة الى اوطانه فى الغرب الاوروبى بعـد وصول الحملة الصليبية الى هدفها ٠

ومن المعروف أن الصليبيين ـ وهم قلة ـ لم يتمكنوا من جلب الأيدى العاملة من الغرب الاوروبى ، بالاضافة الى أنهم احتقروا أعمال الارض ٠ لذلك كانوا مضطرين من أجل استغلال البلاد والقيام بما يلزمهم ، الى التعاون مع الأهالى الوطنيين ٠ وعلى هذا فان الوفاق بين الغالب والمغلوب ، أدى الى ظهور نظام اقتصادى مميز للفرنجة فى الشرق (١) ٠ وعلى عهد بلدوين الاول جرى تشجيع أعداد متزايدة من اللاتين على الاستقرار فى مملكة بيت المقدس ، فظهرت بها طبقة بورجوازية لاتينية الى جانب طبقة النبلاء ، وصار للبورجـوازية اللاتينية الحرية التامة فى ممارسة التجارة داخل المدينة وخارجها (٢)٠ ولابد أن فترة الحروب الصليبية ببلاد الشام ، أدت الى اثراء اولئك التجار ، الأمر الذى جعلهم يمتلكون الاراضى والبيوت والعقارات فى المدن بوجه خاص (٣)٠ ولم تلتزم تلك الطبقة الرأسمالية البورجوازية بأية تعهدات تجاه الســادة الاقطاعيين فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، فضلا عن انها لم تلتزم بالواجبات الاقطاعيـــة ٠

---

(١) Chalandon : Histoire de la Premiere Croisade, P. 301

(٢) رنسيمان : الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٢٤٨ ٠

(٣) Chalandon : op. cit. P. 302

والتجار الايطاليون ، أفضل تعبير للطبقة الرأسمالية البورجوازية ، فى الشام الصليبى • فالملوك الاوائل لمملكة بيت المقدس الصليبية ، اضطروا تحت ضغط الحاجة ، لمناشدة البنادقة والجنوية والبيازنة ، مد يد المساعدة اليهم لفرض السيطرة على الساحل الشرقى للبحر المتوسط • ولكن التجار الايطاليين كانوا عمليين ، فنظير المساعدة حصلوا على امتيازات تجارية عظيمة واعفاءات جعلتهم لايخضعون لأى سيد اقطاعى (١)• اذا لم يقف السادة الاقطاعيون موقف العداء بالنسبة لتلك الطبقة الراسمالية البورجوازية ، بل على العكس من ذلك فقد تنازلت لها عن جزء من سلطتها السياسية ، وبهذا انهار الصرح الاقطاعى أمام المصالح الخاصة لتلك الطبقة الرأسمالية •

والحقيقة أن التجار الايطاليين وغيرهم ساهموا الى حد بعيد فى انعاش اقتصاديات البلاد • وقد دعت الاحتياجات المالية الناشئة عن التطور الاقتصادى ، الى ايجاد كمية وفيرة من النقد ، وطريقة للتداول الاسرع والأعم • ولم تكد تستقر الامارات الصليبية ، حتى شرع ملك بيت المقدس وأمير انطاكية وكونت طرابلس فى ضرب الدنانير من الذهب ، التى عرفت باسم الدنانير الاسلامية Saracente Besants (٢) ، وقد تم التعامل بها مع البلاد الاسلامية البعيدة عن الشاطىء ، وكان على هذه القطع نقوش عربية ، وبعض آيات صغيرة من القرآن ، واشارة الى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وتاريخ هجرى ؛ وقد استمر التعامل بتلك العملة حتى عام ١٢٤٩ م حينما احتج على ذلك البابا انوسنت الرابع (٣) ، فأصدر قرار الحرمان على كل من يتعامل بتلك العملة ؛ وعلى أية حال ، فان التجار احتالوا على ذلك الخطر بسك عملات مشابهة تحمل نقوشا مسيحية والتاريخ الميلادى ، ـ وكلاهما باللغة العربية ـ ، وصليب فى وسط العملة ، ويوجد حاليا نماذج عديدة لتلك العملة التى بدىء العمل بها عام ١٢٥١ م (٤) • واذا نظرنا الى

---

(١) Ibid. P. 303

(٢) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٦١٨ •

(٣) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١١٩ ـ ص ١٢٠ •

(٤) Miller : Essays on the Latin Orient. P. 526

العملات التى كانت متداولة فى الشام الصليبى لوجدناها مختلفة مثل اختلاف العناصر السكانية بها ، فعندما غزا الصليبيون الشام ، وجدوا بها نقودا بيزنطية وعربية ، استخدموها فى التداول حتى لاتنقطع العلاقات التجارية ، وبالاضافة الى ذلك أحضروا معهم كمية كبيرة من مختلف عملات الغـــرب الأوروبى ، غير أنهم لم يلبثوا أن أسسوا دورا لسك النقود خاصة بهم ، واشهر العملات التى اصدرها الفرنجة ،العملة الذهبيةالرئيسية وهى البيزنت Bezant البيزنطى والدينار العربى ، أما العملات النحاسية فلم تسكها الحكـــومات الصليبية (١) • ولم يكن للمـــدن الايطالية البحرية ، أو المنظمات الدينيـــة الحربية ، حق اصدار عملات ، فهذا الحق وقف على حكام الامارات ، وليس للمقطعين الا ان يسكوا نقودا من البرونز لسد الحاجات المحلية (٢) •

وقد أدت ضخامة السيولة النقدية المتبادلة بين التجار ببلاد الشام ، على عصر الحروب الصليبية الى تأكيد وجود المصارف فى المعاملات المالية • وكان لمعظم الجمهوريات الايطلية التجارية فى القرن الثانى عشر بنوك ضخمة لها فروع فى جميع انحاء مراكز نشاطهم التجارى فى الشرق والغرب ، عملت على تسهيل التعامل المالى والتجارى النقدى وغير النقـــدى بالسندات وخطابات الاعتماد بالشركات (٣) • والحقيقة أن الأعمال المصرفية ، وتداول الاوراق المالية بالشام ، ترجع الى القرن العاشر الميلادى ، عندما صار تعبير السفتجة مألوفا ، والغرض من السفتجة نقل الأموال من مكان الى آخر دون المغـــامرة باخطار الطريق ، وبنظام السفتجة امكن التعامل المالى والتجارى بين التجار على مسافات بعيدة (٤) ، بحيث اذا كان لاثنين من التجار أموال عند صراف واحد ، أمكن لأحدهما دفع حساب الآخر بارسال ورقة الى الصراف يطلب منه

---

(١) Thompson : op. cit. Vol. I P. 404

(٢) La Monte : Feudal Monarchy, pp, 74 - 175
Thompson : op. cit. Pol. I P. 406

(٣) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٣٤٠ •

Fischel : Jewis in the Economic and Political Life, PP. 17 - 18

دفع المبلغ لزميله • وعملية نقل الاموال هذه سواء عن طريق النقد أو بالسفاتج لابد انها كانت مصدرا للدخل بالنسبة للصرافين ، اذ يمكننا الافتراض انهم تقاضوا عمولة معينة لدفع سفتجة ، كما نعرف أنهم اخذوا عمولة لدفع صك Sakk ، وقد اشتهر اليهود والمسيحيون كصيارفه (١) •

وزاولت الطوائف الدينية العسكرية ببلاد الشام أعمال الصيرفة ، الى جانب نشاطهم الحربى ضد المسلمين الذين اشتهروا به • فالداوية ، بفضل ممتلكاتهم الشاسعة فى جميع انحاء غرب أوروبا ، كان لهم نشاط مصرفى هائل ، اذ عهد اليهم بنقل الاموال من مكان الى آخر ، وإيداع الأموال فى أحد البيوت التى تخص الداوية فى الغرب الأوروبى (٢) • ولقد عرف الداوية نظام الايداع والسحب ، والودائع النقدية والعينية الثمينة التى ترد الى صاحبها عند الحاجة اليها ، وأصدروا الايصالات فى المعاملات المالية (٣) • ولم ينته القرن الثانى عشر ، حتى صار الداوية يمارسون عملية اقراض الأموال بفوائد مرتفعة واشتهروا بسمعتهم المالية ، مما جعل المسلمون يولونهم الثقة ، ويفيدون من خدماتهم •

وقد تحددت السياسة الضرائبية ببلاد الشام على أساس ان النشاط التجارى هو المصدر الأساسى للموارد المالية الاقتصادية ، تعتمد على التعامل التجارى والاتجار مع بلاد المسلمين ، لذلك فان الفرنجة أباحوا المرور للتجار والمسافرين ببلادهم • ولكى تخرج السلع المعاد تصديرها ، أو السلع الصناعية المحلية والمنتجات الزراعية ، لابد من دفع رسوم الصادر ؛ وفى حدود النظم الاقطاعية كانت السلع المستوردة والسلع الصناعية ، تصدم بضريبة سوق البيع ، ويتم المعاملة بالمثل بالنسبة للتجار المتجولين ، والتجار أصحاب الحوانيت ؛ وكان من المألوف أن المصنوعات المحلية ، لاسيما الأقمشة والاوانى

---

(١) Ibid. PP. 21 - 29

(٢) Cheyney : The Dawn of a New Era. PP. 45 - 64

(٣) Boissonnade : op. cit. P. 168

Lamb : The Crusades. P. 384

الخزفية والأشغال المعدنية ، لابد من دفعها ، ولاتصير صالحة للاستعمال الا بعد دفع الرسوم المقرر (١) • وقد أقام الصليبيون مواضع « تمكيس » على حدود اماراتهم ؛ وأطلق المسلمون على « الجمرك » الديوان ، الذى تعددت مصادر دخله المالى ، فبعضه كان يجبى من القوافل لاسيما القادمة من مصر وبلاد العرب القاصدة دمشق ، وهى قوافل متواصلة السير ، فكانت الضرائب تجبى على أحمالها فى مدينة الداروم ، وهى محطة للتفتيش والتقدير والتمكيس » (٢) •

ومن الملاحظ أن الصليبيين لم يسيروا على سياسة ضرائبية ثابتة واضحة المعالم • ففى بعض الاحيان عمدوا الى زيادة الضرائب المقررة ، وذلك حين تستنفد الحرب قدرا كبيرا من الثروة العامة ، كما انهم قد يفرضون ضرائب اضافية اذا دعت احدى الضرورات الحربية ، كاقامة الاسوار ، أوترميم الحصون • وعلى الرغم من أن كتاب الديوان (الجمرك) من الصليبيين ، الا أنه كان يتعين عليهم معرفة اللغة العربية لسانا وكتابة (٣) • ومما لا شك فيه ان الأمراء الصليبيين جنوا مبالغ ضخمة من وراء تلك الضرائب ، غير أنهم بددوها على الكنيسة والمنظمات الدينية الحربية ، وسمحوا أيضا لتلك الثروة أن تسيل من بين أصابعهم ، وتقع فى ايدى موظفين مبتزين ، كذلك استولت الطبقة البورجوازية التجارية الجشعة على جزء منها ؛ وعلى أية حال، فان ثروات ملوك بيت المقدس ـ بالرغم من قلتها ـ فاقت ثروات ملوك الغرب الأوروبى المعاصرين لهم (٤) •

ومن الجدير بالذكر ، أن الغرب الاوروبى اصدر قانونا بفرض ضريبة على الممتلكات الشخصية عام ١١٨١ م ، سميت بضريبة صلاح الدين ، وهى

---

(١) Calandon : op. cit. PP. 349 - 350

(٢) نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٢ •
حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ١٥٢ •

(٣) حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ١٥١ ـ ص ١٥٣ •

(٤) Thompson : op. cit. Vol. I PP. 406 - 408

محاولة مبكرة لفرض ضريبة من هذا النوع فى التاريخ الاقتصادى لأوروبا، كما أصدر فيليب أوغسطس عام ١١٨٤ م مرسوما بفرض ضريبة مماثلة (١)٠ كما دفع العالم المسيحى فى الغرب الاوروبى ضرائب ، ارتبطت فى تطورها بالحروب الصليبية ، بعد أن فرضها بعض الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا ، وريتشارد الأول ملك انجلترا على رعاياهم العلمانيين والكنسيين من أجل الغرض الصليبى (٢) ٠ وهكذا تكون الحركة الصليبية قد ساعدت على ايجاد تقدم ملموس فى النظم المالية فى الغرب الأوروبى ٠ وهو تقدم له خطورته لانه يعتبر بداية ونواة لنظام الضرائب الحديث (٣) ٠

وقد خدمت الاسواق التبادل التجارى فى بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية ٠ ذلك أن وجود الكيان الصليبى ادى الى فتح البحر المتوسط ـ او بالأحرى أعادة فتحه فى وجه السفن الآتية من الغرب الأوروبى ٠ وبالرغم من أن المسلمين تمكنوا من استعادة أراضيهم بعد أن وحدهم صلاح الدين الأيوبى ، فوجهوا الضربة اثر الضربة للصليبيين ، الا ان المسلمين لم يستطيعوا هز المركز الذى حصلت عليه المدن الايطالية فى الشرق (٤) ٠ ونخرج من هذا الى أن التبادل التجارى ظل قائما ، سواء فى ظل الكيان الصليبى أم بدونه ، واعتاد الفريقان (المسلمون والفرنجة) عقد اسواق تجارية سنوية ، يفد اليها التجار دون نظر للفارق الجنسى أو الدينى (٥) ٠ ومن الثابت أن موانىء الشام عقدت فيها تلك الاسواق فى مواسم ومناسبات معينة، حيث يصل اليها التجار من الشرق والغرب ٠ كما أن المستعمرات الايطالية فى مدن الشام ، مارست التعامل التجارى فى تلك الاسواق ، كذلك لابد أن القناصل عقدوا الصفقات التجارية بالنقد والمقايضة والبيع المؤجل الدفع ٠ والاسواق السنوية Fairs كانت أحد الملامح الرئيسية للتنظيم الاقتصادى فى العصور الوسطى ، ولعبت دورا هاما فى القرن الثالث عشر ؛ وقد انتشرت تلك الاسواق

---

(١) Stubbs : Select Charters, pp, 188- 189

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٩ ٠

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١٢١٥ ٠

(٤) Pirenne : op. cit. PP. 31 - 32

(٥) حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ١٥٠ ٠

فى جميع البلاد ، وتشابهت فى سمات اساسية واحدة ، الامر الذى جعلها تعتبر ظاهرة عالمية (١) • ومن الثابت ان الاسواق كانت مراكز للتبادل التجارى وجذبت اليها اعظم الاسواق السنوية بالمعارض الدولية ، التى يجد فيها كل تاجر الترحيب بصرف النظر عن بلده ، وتحتوى ايضا على كل سلعة تباع أو تشترى ، مهما كانت طبيعتها ، وبالاضافة الى ذلك ، فقد كان من المستحيل عقد اكثر من سوق أو اثنين خلال العام فى مكان واحد ، ذلك أن الاستعدادات لتلك الاسواق تأخذ مجهودا صخما (٢) •

كذلك عقدت بالشام أسواق موسمية ، فى مواسم ورود القوافل من الشرق الاقصى ووسط آسيا لأسواق الشام ، وتخضع تلك الاسواق فى ذلك لمواعيد هبوب الرياح الموسمية ، وتصل فى مواعيد سنوية لاتتغير ، وفى نفس الوقت تصل السفن الاوروبية من الغرب الاوروبى ، لحمل السلع فى مواعيد ثابته، وتعقد فى ذلك الوقت المزادات (٣) •

أما الأسواق المحلية الدائمة بالشام ، فهى التى لم ينقطع فيها البيع والشراء على مدار السنة ، ومن الممكن أن ينطبق عليها اصطلاح «سوق دائم» لها أيام معينة فى الأسبوع ، تعقد فيه الصفقات التجارية • وقد غلب على السوق الاسبوعى صفة التخصص ، ببيع اصناف معينة من البضائع ، فهذا السوق يختص ببيع سلعة كذا ، وذلك يختص ببيع سلعة أخرى ••• وهكذا: ومن محاسن هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه برفع اسعار السلعة التى يتجر فيها ، لأن منافسيه على مقربة منه ، كما ان المشترى اذا لم يرقه صنف السلعة أو ثمنها ، فانه يستطيع أن ينتقل فى سهولة من متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة • أما عيوب هذا النظام ، فأهمها أن المشترى اذا رغب فى شراء عدة اصناف مختلفة من البضائع ، فانه كان يجوب المدينة

---

(١) Pirenne : op. cit. P. 97

(٢) Loc. cit. &
Pirenne :Medieval Cities.

(٣) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ •

طولا وعرضا حتى يقضى حاجاته ، لانه لن يجد فى السوق الواحد سوى نوع معين واحد من البضائع (١) • ولم تترك حركة البيع والشراء فى تلك الاسواق دون رقيب أو حسيب • فهناك المحتسب الذى كان من اختصاصه الطواف بالسوق للتفتيش على البضاعة ، وضبط من يحاول التلاعب فى الاسعار أو الاوزان أوالمكاييل او غش السلع ، فضلا عن سرعة البت فى المخالفات التى ترتبط بالمعاملات التجارية • وقد اشترط فى المحتسب أن يكون ذا مهابة ، ثقة فى دينه وأمانته (٢) •

وثمة نوع من الاسواق انفردت به بلاد الشام خلال الحروب الصليبية، كثيرا ما ورد ذكره خلال المعارك التى كانت تدور بين المسلمين والصليبين، على عهد صلاح الدين الايوبى • وهذا النوع عرف باسم « سوق العسكر » ، اقتضت اقامته الاحوال العسكرية ، فقد كان من المألوف عند تخطيط العسكر الاسلامى ، اول ما يفعل اقامة خيمة السلطان ومن حولها خيم امراء الجيش، ويشترط عند ضرب العسكر توافر المياه فى ايدى المسلمين ، والأزواد والكلا على تل أو قرية أو فى ارض سهلة (٣) • وفى المعارك التى دارت حول مدينة عكا (١١٨٩ ــ ١١٩١ م) ، شهدت تلك المدينة قيام معسكر للمسلمين ، سار فيه النشاط التجارى جنبا الى جنب مع النشاط الحربى ، ونستدل على ذلك من الوصف الذى اورده لنا الرحلة عبد اللطيف بن يوسف البغدادى (٤)• عام ١١٩١ (٥٨٧ هـ) قائلا : « كان السوق الذى فى عسكر السلطان على عكا عظيما ، ذا مساحة فسيحة • فيه مائة واربعون دكان بيطار • وعددت عند طباخ واحد ثمانية وعشرين قدرا ، كل قدر تسع رأس غنم • وكنت احفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق وأظنها سبعة آلاف دكان •• وكان فى المعسكر اكثر من ألف حمام • وكان أكثر ما يتولاه المغاربة ، يجتمع

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٩٦ ــ ص ٢٩٧ . المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٨٦ •

(٢) الحسن بن عبد الله : آثار الاول ، ص ٦٥ •

(٣) نظير سعداوى : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ص ٥٩ ــ ص ٦٠ •

(٤) الافادة والاعتبار ، ص ٨ •

منهم أثنان أو ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء ، ويأخذون الطين فيعملون حوضا وحائطا ، ويسترونه بحطب وحصير ويقطعون حطبا من البساتين التى حوله ، ويحمون الماء فى قدور ، وصار حماما يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر» . وخلال تضييق الصليبيين الحصار على المدينة ، أتى من قبل الملك ريتشارد قلب الأسد رسل طلبوا فاكهة وثلجا ، فضلا عن التفاوض من أجل الصلح ،وحدث أنهم دخلوا سوق العسكر ، « وتفرجـــوا فيه ، وعـــادوا تلك الليلة الى معسكرهم (١) » . ومن الطبيعى أن سوق العسكر كان مؤقتا يجتمع فيـــه التجار لمدة معينة ، عند حدوث معركة أو فرض حصار طويل ، فاذا ما انتهى الغرض منهما ازيل السوق ، ورحل تجاره .

ومن الافراد الذين اشرفوا على التجارة الخارجية فى الساحل الشرقى للبحر المتوسط القناصل التجاريين . وقد دعت الحاجة الى وجود القناصل عندما انتعشت التجارة الدولية ، وتطلب الوضع اقامة التجار فى موانىء الشام الفرنجية ، لذلك صار من الضرورى أن يقيم القناصـــل لرعاية التجار من مواطنيهم ، وحسم الخلافات التى قد تظهر بينهم . وأقدم القناصل فى الشام الفرنجى ، أولئك الذين عينتهم جنوة فى عكا عام ١١٨٠ م ؛ وقد كان هؤلاء القناصل يرأسون المحاكم الجنوية المحلية ، ويصادقون على توقيعـــات من مواطنيهم ، ويحسمون الخلافات التى تنشب بينهم (٢) . ويحـــرم على القنصل الاشتغال بالتجارة لحسابه او لحساب غيره ، ويرشح لوظيفة القنصل افراد من الاسر الكريمة ، وتجدد المدن التجارية قناصلها فى شرق البحر المتوسط عاما بعد عام ، وقد يستقر القنصل فى وظيفته ثلاث سنـــوات ، اذا زكاه مواطنوه التجار ، وكانت بعض الجمهوريات التجارية الايطالية لاسيما جنوه والبندقية ، ترسل لمراكز نشاطها التجارى ثلاثة قناصل ، بحيث يحل كل واحد مكان الذى تنتهى مدة خدمته ، وتهدف من هذا الى تفادى اشكالات الموت

---

(١) ابن مشامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ ، لبنان فى التاريخ ، ص ٣٨١ ،

المفاجىء ، او صعوبة المواصلات احيانا ، وكذلك لزيادة مران القنصل فى وظيفتـــه (١) ٠

ولما كانت موانىء الشام الفرنجية قد استقبلت العديد من التجار من مختلف الطوائف والجنسيات والاديان ، فقد استتبع ذلك تعدد اللغات ٠ وفى تلك الموانىء استطاع المرء سماع جميع الالسنة لاوروبا الغربية ، والبـلاد الاوروبية المطلة على البحر المتوسط ، لاسيما لغة التجار الايطاليين الذين زحموا الموانىء ، ومن المؤكد أن العديد من السادة الاقطاعيين ، بصرف النظر عن البولانيين (الأفراخ) ، كانوا على دراية باللغة العربية ، وهى معرفة لازمة للعلاقات بافصالهم والتجارة (٢) ٠ وقد درجت جنـــوه على ارسال تجارها ، ومن بعدهم مندوبيها الى أغلب الأقطار الاجنبية ، ومن ثم أضحى من الضرورى لها تعليم رجال الاعمال اللغات الاجنبية ، وفى المراكز التجارية لجنوة تواجد المترجمون ، من ذوى القدرة على قراءة وكتابة العربية أو اليونانية أو الارمينية ٠ ودراية تجار جنوه ومندوبيها باللغات المتصلة اتصالا وثيقا بالطابع التجارى للمدينة (٣) ، ونظرا لتعدد اللغات التى تداولها التجار فى موانىء الشام الفرنجية ، فقد نشأت لغة مشتركة Lingua Franca ـ أو خليط ـ قوامها كلمات من اللغات الفرنسية والايطالية واليونانية والعربية ، كان يجرى التحدث بها فى موانىء البحر المتوسط ، وتشبه تلك اللغة المشـــتركة الرطانة الانجليزية فى الموانىء الصينية Pidgin English ؛ ويمكننا القول ان اللغة المشتركة كانت لغة التجارة فقط (٤) ٠

---

(١) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ ـ ص ٢٢٥ ٠

(٢) Lammens : La Syrie Précis Historique. Vol. I P. 621

(٣) جاك هيرز : جنوه مثل لمدن البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، ص ٥٩ ٠

(٤) Thompson : op. cit. Vol. I P. 398